دار يوليو للنشر

موجز تاريخ مجتمعات ما قبل الرأسمالية

تأليف : ف . كيروف
: ى . روبريتسكى
: و . متروبولسكى

ترجمة : محمد يوسف الجندى

موجز تاريخ
مجتمعات ما قبل الرأسمالية

تقـــديم

عثرت مجموعة من العلماء اثناء قيامها بأعمـــال الحفر فى وادى « أولدواى » فى تنجانيقا عام ١٩٦٠ على بقـــايا أنسان من عصر ما قبل التاريخ عاش قبل ٦٠٠ الف عام مضت وبجواره بضع من الحجارة المشكلة تشكيلا بدائيا . وكانت هذه أول أدوات استخدمها الانسان . وكان الغرض من صنعها : مســـاعدته فى الحصول على طعامه ولحمايته من الوحوش .

وكان الانسان حتى ذلك الوقت — مع أنه مسلح بمثل هـــذه الأدوات البدائية — عاجزا فى مواجهته قوى الطبيعة الجبارة ، يجوب الغابات اللانهائية بحثا عن الطعام ، حياته أقرب الى حياة الوحوش منهـــا الى حياة الانسان المعاصر .

وكرت الأعوام والعصور وطوت الأزمان اجيالا لا حصر لهـــا وتغيرت حياة الانسان . ثم ، وفى ١٢ أبريل ١٩٦١ وبالكاد بعـــد مرور عام على كشف برأدى أولدواى ، أطلق الاتحاد السوفيتى أول سفينة فضاء تحمل أول رائد فضاء فى التاريخ «يورى جاجارين» المواطن السوفيتى فى رحلته التاريخية حول كوكبنا مؤذنة بتحقيق نصر عظيم — الا وهو ارتياد الفضاء .

يا له من طريق طويل ذلك الذى اجتازه الانسان فى تطوره
ما هى المشاق التى واجهها ؟ كيف تطور المجتمع الانسانى بعــد ا
خرج الانسان من المجتمع البدائى ؟

والتاريخ وهو العلم المختص بماضى وحاضر الانسانية يجيب عل
هــذه الأسئلة .

ولكن كيف تعرف التاريخ على تلك الأحــداث القــديمة الت
جرت فى وقت لم تكن توجد فيه كتب ولا صحف ؟ ان أقدم « كتاب
يخبر المؤرخ عن الأيام الأولى للانسان هو الأرض نفسها . فحين
كان الانسان يهجر موقعا عسكر فيه ، فان أمتعته وأدواته كان
تغطس تدريجيا فى طبقات من التربة ـــ وهنـــا دور المؤرخ ، فم
يحفر التربة ويزيح بعناية طبقة بعد طبقة حتى يصل الى الصفح
الأولى فى تاريخ الانسانية ، فتحدثه عن أقدم العصور فى حيث
الانسان عن عصر تكوين المجتمع . وفى أغانى وأقاصيص الشعو
وجد كتابا رائعا آخر . فالشعوب فى أغانيها تحكى حياتها اليوم
وحالهـــا وماضيها . ويتغير محتواها تدريجيا ، فالأحداث الجدي
تختلط بالأيام المـــاضية ، ومرة أخرى يصبح من واجب المؤرخ ا
يمحص الوصف الصادق للمـــاضى فى المـــادة الفولكلورية ويقرأ
صفحاتها تاريخ الانسان . وفى زمن متأخر تعلم الانسان الكتابة
أولا على الحجر ثم على ألواح من الطين ، وأخـــيرا على الورق
وكثيرا ما كانت هذه الكتابات وصفا لأحداث مضت ، أو لحياة مختل
الشعوب أو للشرائع التى كانت قائمة فى تلك الأزمنة السحيقة
وكل هـــذه الاكتشافات زودت التاريخ بمادة وافرة لاعادة بنـــ
طريقة حياة الانسان القديمة بشكل موثوق به .

ولكن بماذا يخبرنا العلم عن أصل الانسان ؟ كيف يفسر تكوي

المجتمع الانسانى ؟ لقد تنبه العلماء الى التشابه القوى بين الانسان والحيوانات وبصفة خاصة القردة العليا . وقد أثبت تشارلز داروين عالم التاريخ الطبيعى الانجليزى العظيم ، ان الانسان والأنواع المختلفة من القردة العليا (الشامبانزى ، الجوريلا . الاورنج أوتانج والجيبون) ، يشتركون فى أشياء كثيرة فيما يتعلق بتركيب الجسم والهيكل والأعضاء الداخلية ، وتطور الجنين ، الخ. وهذا يثبت العلاقة البيولوجية بين الانسان والحيوانات الراقية . ومع ذلك فقد أثبتت اكتشافات بقايا حفريات القردة العليا التى انقرضت منذ زمن بعيد ان الانسان أكثر قربا من تلك الأنواع القديمة المنقرضة منه الى القردة العليا التى تعيش حاليا . وقد ثبت هذا أن الانسان قد تطور من قردة متطورة تطورا كبيرا هى أسلاف كل من الانسان والقردة العليا الحالية .

ومنذ أكثر من ثلاثين مليونا من السنين كانت القردة العليا القديمة تسكن الغابات الاستوائية فى كوكبنا . وعلى مر الألوف من السنين لاءم أحفادها بطرق مختلفة بين أنفسهم وبين الظروف المحيطة بهم . ومع أن غالبية هذه القردة العليا واصلت حياتها الحيوانية الا أن أسلاف الانسان اتبعوا طريقا مختلفا . فبتلاؤمهم مع بيئتهم تعلموا شيئا فشيئا المشى منتصبى القامة ، وأتاح هذا لأطرافهم الأمامية أن تبقى حرة لتقوم بأنواع أخرى من النشاط . وبتطور أطرافه الأمامية أخذ الانسان القرد (مسترشدا بغريزته الحيوانية) فى استخدام الأشياء الطبيعية كالعصى والحجارة ، أسلحة للدفاع والهجوم . وشيئا فشيئا تعلم استخدام هذه الأشياء كأدوات للحصول على الطعام : للصيد والحفر عن الجذور التى تؤكل . وقد ساعده الاستخدام المنتظم للأحجار والعصى على تطوير جسمه وبالذات يديه .

ثم بدأ الانســـان فى اختبـــار الأحجار الأكثر ملاءمة الأغراض وفيما بعـــد تعلم كيف يشكلها بخبط حجر فى آخر وكيف يسنها وكيـ يبرى الصوان بالحجم والشكل المطلوب ثم يصقلها . وهكذا تعـ اسلاف الانسان كيف ينتجون أدواتهم الأولى للحصول على الطعام

وليس لدى الحيوانات ، حتى أكثرها رقيا ، القـدرة على صنـ أبسط الأدوات ، ان العمل وصناعة الأدوات هى التى تميز الانسا عن دنيا الحيوان . ولقد كان العمل بأوجهه المختلفة هو الذى قـ اسلاف الانسان والقردة العليا على دروب مختلفة من التطور فالقردة العليا واصلت طريقة حياتها الحيوانية وليست لديها القدر الا على الملاءمة السلبية للطبيعة . وبالعكس فالانسان بولوجه درو العمل ، ومن ثم التقدم الاجتماعى يتقدم فى الكفاح ضد قوى الطبيعـ ويغيرها حسب غايته ويجعلها شيئا فشيئا فى خدمة أغراضه .

وعلى هذا فان التطور الانســـانى بيولوجيا منحه ملكات للعمل والعمل بدوره حفز تطورا أكبر فى جسم الانسان . وكان تأثير الأكبر على اليد التى اكتسبت خلال تطور الانسان مرونة ومهار أكبر . وقد زودته الأدوات بدورها بغذاء نباتى وحيوانى أكبر وقد أسهم التحول للغذاء الحيوانى فى تطور اكبر للجسم الانسانى وخاصة المخ . على أن العمل هو الذى لعب الدور الحاسم فى تطور المخ الانسانى . وقد وجه النشاط الانسانى انتباهه الى خواص الأشياء الطبيعية المحيطة ، فكون أفكارا عامة عن بيئته واختبره فى التطبيق وبهذا توصل الى اكتشاف العلاقات بين الأشياء والظواهر المختلفة . ويمكننا ان نفترض أن الانسان القديم قد لاحظ أن أنواع معينة من الحجارة قابلة للانفلاق الى صوان ويمكن تشكيلها بسهولة الى مكاشط وسكاكين حجرية وذلك خـــلال قيامه بصنع أدواته الحجرية الأولى . وعلى هـــذا فعن طريق العمل تطور مخ الانسان وأصبح التفكير ممكنا وذا هدف ، ومكنه ذلك من التنبؤ بنتائج عمله .

واكتسب نشاطه الغريزى اللاواعى صفة ارادية وواعية ، وعلى هـذا فقد دفع الانسان الى تطوير المخ وبالمثل اثر نمو قـدرات الانسان الذهنية على تطور نشاطه العملى .

ولا يمكن تصور العمل الانسانى منعزلا ، فقد كون النـاس جماعات للعمل المشترك مما جعل من الضرورى وبالنسـبة لهم الاتصال بعضهم ببعض . ومن ثم ادى العمل الانسانى الى ظهور وتطور النطق ـــ وسيلة للتعبير عن الأفكار . ولقـد تطور النطق الانسانى من تلك الأصوات المدغومة التى تصدر عن الحيوانات فى مواجهة الخطر . والنطق الانســانى ليس اغنى الف مرة فى تنوع الأصوات فحسب ، بل انه ومنذ نشأته الأولى كان يعكس النشاط الواعى لا الغريزى .

لقـد تطور النطق الانسانى خلال عمل الانسان واكتسب صفة الوضوح والمفاصل ومكنه من التعبير عن افكاره وخططه . ولقـد كان النطق ذو اهمية فى تطور المجتمع الانسانى ، اذ انه وحـد بين عدد من الناس اثناء العمل ومكن من تنظيم العمل الجماعى . وبذا اغتنت المهـارة الانسانية واتسعت .

ومن هنـا فان العمل الانسانى كان العامل الأساسى فى تطور البشرية . وكان اول من لاحظ وبحث فى الدور الذى لعبه العمل فى تطور الانسان هما العالمـان الفذان وقائدا الطبقة العاملة ، كارل ماركس (١٨١٨ ـــ ١٨٨٣) ، وفردريك انجلز (١٨٢٠ ـــ ١٨٩٥) ، اللذان اعطيا وزنا كبيرا لدور العمل النشيط فى تطور الانسان ووضعا له هذه الصياغة « ان العمل هو خالق الانسان نفســه » .

مرت القرون ، وقد قرب العمل ما بين الناس ولكن المعرفة بأصل الانسان لم تحدثنا بشيء عن قرون من عمر تطور الانسان . ما هو العامل الأساسي في التطور الاجتماعي ؟ ما هي القوة الدافعة له ؟ مم يتكون أساس المجتمع الانساني ؟ انه يبحث هذه المسائل يصبح من الممكن فهم تاريخ الانسانية .

فمن أجل الحفاظ على وجوده يحتاج الانسان الى مواد أساسية معينة : المأكل ، والملبس ، والمأوى ، الخ .. والحيوانات لا يمكنها الا استخدام ما توفره الطبيعة من مواد . فهي تجمع الحشائش والثمار وتصطاد الحيوانات الأخرى ، والطيور ، والأسماك ، والحشرات . ولكنها تحصل على هذه القيم المادية ، فقط ، بالقدرة الذي يسمح لها به تطورها الطبيعي . فلا يستطيع أي حيوان أن يصطاد طائرا مختلفا مهما بلغ به الجوع . اما الانسان فمختلف عن هذا . فبصنعه للأدوات ، واستخدام المواد الطبيعية ، والقوى الطبيعية ، خلق الانسان بنفسه المواد الضرورية لحياته . فباستخدام عصى بسيطة أمكن للانسان أن يستخرج الجذور التي لم يكن يستطيع الوصول اليها بغير هذه الطريقة . ومكنته بعض الأدوات الحجرية من قتل الوحوش الكبيرة . وفيما بعد مكنه اختراع القوس والسهم ، والحربة والنبلة من اصطياد الحيوانات عن بعد وكذلك اصطياد طائر محلق ، ولم يكن ذلك ممكنا أبدا ما لم يكن الانسان قد صنع بنفسه الأدوات الضرورية . وقد أعطته تطور الزراعة وتربية الماشية وما تلاهما من انتاج بضائع مادية أخرى ، أعطته وسائل اعاشة اضافية ، وأدت الى زيادة في القيم المادية بشكل عام . ومع هذا ، فان العمل الانساني لم يؤدي الى الحصول على عدد أكبر من المواد التي تتيحها الطبيعة فحسب ، بل انه خلق مواد جديدة ، لا توجد في شكلها النهائي في الطبيعة . وقد سلخ انسان ما قبل التاريخ الحيوانات التي قتلها ليصنع

ملابس تحميه من الطقس . وبالاستعانة بالأدوات بنى له مأوى
واليوم أصبح فى قدرة الانسان أن يخلق عديدا من المواد
لا توجد ولم يسبق لها أن وجدت فى الطبيعة .

وطالما أن الانسان لا يمكنه أن يعيش بدون البضائع المادية التى يخلقها بنفسه ، فقد أصبح انتاج هذه البضائع أساس الوجود الانسانى .

وبما أن تطور الانسان يتطلب زيادة مستمرة فى المواد ، فان انتاجها يجب أن يتزايد باستمرار ويتحسن . وبالاضافة الى ذلك فان تقدم الانتاج المادى لا يتوقف على ارادة الانسان ورغبته ، اذ انه نتيجة للتطور الموضوعى ، نتيجة لقانون الحياة الاجتماعية .

كيف يتطور انتاج الثروة المادية ، التى هى اساس حياة المجتمع ؟ ان الانتاج يحتاج الى مواد — ادوات العمل ، والوسائل التى عن طريقها يعمل الانسان على ادوات العمل — وسائل العمل . والانتاج يتطلب أولا وقبل كل شىء آخر ، أدوات الانتاج ، أى ، تلك الأدوات التى استخدمها الانسان ولا يزال يستخدمها لنشاطه العملى ، ابتداء من أدوات الانسان البدائى الحجرية الخشنة الى الماكينات الحديثة المعقدة . ولكن مع ذلك فان وسائل وأدوات العمل التى تكون وسائل الانتاج ، لا تنتج المواد بنفسها . فالجزء الأساسى فى عملية الانتاج يقوم به البشر ، الناس العاملون الذين لديهم القدرة على خلق واستعمال هذه الأدوات بما يملكون من مهارات وخبرات معينة .

وتكون وسائل الانتاج التى يخلقها المجتمع بالاضافة الى الشعب

العامل ، القوى الانتاجية للمجتمع ، والشعب العامل هو القوة الانتاجية الحاسمة التى بدونها تصبح وسائل الانتاج ميتة لا حياة فيهـا .

ويبدأ تطور الانتاج المـادى بتغيرات فى القوى المنتجة التى تتعلق أول ما تتعلق بتطور أدوات الانتاج التى يتزايد اتقانها وملاءمتها لعمليات الانتاج المختلفة باستمرار . والتحسين المستمر فى هـذه الأدوات هو أساس التطور الاجتماعى ويجعل الانسان أقل اعتمادا على قوى الطبيعة . ويحدد مستوى تطور أدوات الانتاج درجـة سيطرة الانسان على قوى الطبيعة . فبالفأس الحجرى البدائى استطاع الانسان أن يطهر شريطا من الأرض من النباتات ولكن ليس غابة . ولم يصبح تطهير الغابات ممكنا الا بظهور فأس متقـدمة ذات يد من خشب . واصبحت الفأس الحجرية ذات اليد الخشبية الطويلة طوريه (جروفا) تستخدم فى عزق الحقول . وقد مكن تطور الفـأس الحجرى ـــ الانسان من توسيع رقعة محاصيله الغذائية وأدى الى تغييرات عميقة فى كل مناحى حياته . بل وقد أحدث تطور الزراعة تغييرات اكبر فى حياة المجتمع . وقد أدخلت الصناعة الحديثة تغييرات جذرية فى حياة معاصرينا بحيث قللت شيئـا فشيئا من الأخطـار التى كان يسببها ضعف المحـاصيل والكوارث الطبيعية الأخرى .

وعلى هـذا فان الحقب الاجتماعية المختلفة تحدد طبيعتهـا أولا وقبل كل شىء ، أدوات العمل المستخدمة فى انتاج الثروة المادية . ولكى يكون لدينـا فهم سليم للتطور الاجتماعى فانه من الضرورى أولا أن نحلل عنصره الأساسى الا وهو تطور انتاج القيم المـادية . ومن الضرورى البحث والتدقق فى الأدوات المستخدمة فى الانتاج والمعرفة والمهارة لدى الناس الذين خلقوا القيم المـادية ، أى مستوى تطور القوى الانتاجية للمجتمع .

ولكن كما سبق أن قلنـــا فمن أجل أن ينتجوا ، يجب أن يساهم الناس فى عمل جماعى . والعلاقات ألتى تنشـــأ بين النـاس من خلال عملية الانتاج تعرف بالعلاقات الانتاجية ، وهى تشمـــل علاقات الناس المتبادلة فى انتاج القيم المادية (المجهودات المشتركة ، تقسيم العمل ، المساعدة المتبادلة .. الخ .) والأشكال المختلفة لتوزيع القيم المنتجة (التوزيع المتساوى ، التوزيع طبقا للعمـــل المبذول .. الخ .) وما هو اكثر أهمية ، الأشكال المختلفة لملكية وسائل الانتاج (الملكية الجماعية ، الملكية الخاصة) . ومسألة ملكية وسائل الانتاج هى المسألة الرئيسية فى العلاقات الانتاجية ، لأنهـــا هى التى تحدد علاقات الناس فى عملية الانتاج واشـــكال توزيع القيم المنتجة . وعلى هـــذا ففى ظل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج يساهم الناس بقسط متساوى فى العمل ويحصل كل واحد على نصيبه من القيم المـــادية . وفى ظل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لا يكون المالك مضطرا للعمل بنفسه بينما الناس المحرومون من هـــذه الملكية يجبرون على العمل لصالحه وهو يستحوذ على الجزء الأكبر من القيم المـــادية المنتجة .

وعلى هـــذا فشكل ملكية أدوات ووسائل الانتاج هو العامل الأساسى فى تحديد كافة سمات العلاقات الانتاجية والموضع الذى تشغله المجموعات الانتاجية المختلفة فى عملية الانتاج وفى علاقاتها ، والعلاقات الانتاجية كما سيوضح هـــذا الكتاب تتحـــدد بمستوى تطور القوى المنتجة .

وكل جيل جديد يجد مستوى معينا من تطور قوى الانتـــاج قائما وموجودا بالفعل . وتطور طريقة الانتاج ، أى مستوى تطور القوى المنتجة وسمات العلاقات الانتاجية ، ككل توجد مستقلة عن وعى الانسان وتتبع قوانين موضوعية للتطور .

والعلاقات الانتاجية ، أو البناء الاقتصادى للمجتمع ، يشكل الأساس للحياة الروحية للمجتمع ، أساس كل الأفكار والنظريات الاجتماعية ، والعلاقات الأيديولوجية ، والأنظمة السياسية والقانونية والثقافية ، وهى جميعا تشكل البناء الفوقى للمجتمع المقام فوق ذلك الأساس . والعناصر المختلفة للبناء الفوقى يحددها بناء اقتصادى معين للمجتمع ، وهى بدورها تؤثر فى تطور العلاقات الانتاجية اما بدفع أو تعويق تقدمها . وعلى هذا فان سياسة قديرة تأخذ فى اعتبارها احتياجات الاقتصاد تعجل بتطوره. فالنضال من أجل السلام تؤمن الأمم الحديثة الناهضة فى أفريقيا أكثر الظروف ملاءمة لنموها الاقتصادى وتحشد قوى المجتمع لتنمى القوى الانتاجية وبهذا تدفع نمو دعاماتها الاقتصادية جنبا الى جنب مع كل مناحى حياة مجتمعها . وفى الوقت نفسه فان سياسة الحرب يمكن أن تجلب تدميراً لكل القيم المادية ، للمجتمع وكل قواه الانتاجية . وهذا يعوق نمو البناء الاقتصادى للمجتمع ويضعف اقتصاد هذه البلدان بل وربما أدى الى استبعادها.

وعلى هذا ففى دراسة تاريخ المجتمع الانسانى يجب على الانسان ألا يكتفى بدراسة البناء الاقتصادى للمجتمع بل عليه أيضا دراسة بنائه الفوقى . وهذا المنهج فى دراسة تاريخ المجتمع الانسانى يعرف بالمفهوم المادى للتاريخ . وكان اول من صاغاه وأعطياه اساسا علميا هما كارل ماركس وفردريك انجلز ، وقد أثبت صحته كل تاريخ الانسانية بأكمله . وفيما بعد تطور المفهوم المادى للتاريخ فى مؤلفات القائد المبرز للشعب العامل ومؤسس الدولة السوفيتية فلاديمير اليتش لينين (١٨٧٠ — ١٩٢٤) .

والمفهوم المادى للتاريخ ينظر الى تاريخ الانسان كتطور وتتابع انماط تاريخية معينة من المجتمع (لهـا أسلوب انتاج وبناء فوقى

ذو سمات معينة) ، تعرف بالتكوينات الاقتصادية الاجتماعية . وقد ثبت علميــا أن الانسانية ككل قد مرت بالتكوينات الاقتصــادية الاجتماعية التالية :

المشاعية البدائية ، العبودية ، الاقطاعية ، والرأسمالية ، وهى تعيش الآن حقبـــة انتقالية مؤدية الى التكوين التـــالى ، التكوين الشيوعى وأول اطواره هو ما يسمى بالاشتراكية . وتطور وتتابع التكوينات الاقتصادية والاجتماعية قانون موضوعى من قوانين تطور المجتمع سارى المفعول منـــذ ظهور الانسانية وتكون المجتمع .

وهــــذا الكتاب وبشكل موجز جـــدا يشرح تطور التكوينـــات الاقتصادية والاجتماعيـــة الأولى : المشاعية البدائيـــة والعبودية والاقطاع .

الفصل الأول

المجتمع البدائى

١ – تكوين المجتمع البدائى

تطور القوى الانتاجية فى مجتمع ما قبل التاريخ :

خرج الانسان من الحياة الحيوانية من نحو مليون سنة خلت بخلقه واستخدامه أدوات عمله الأولى. ومثل كل الحيوانات الأخرى كان انسان ما قبل التاريخ تحت رحمة البيئة الطبيعية الجبارة ولم يكن ليختلف أسلوب حياته الا قليلا عن اسلوب حياة الوحوش . فكان هناك حشود من اسلافنا متجمعة تجوب الغابات ووديان الأنهار بحثا عن الطعام وتجمع كل ما يمكن تناوله من الجذور والثمار والحيوانات البطيئة الحركة بل والجيف . وفى مثل تلك الأزمنة السحيقة لم يكن لدى الانسان ادنى فكرة عن كيف يصنع محلا يأويه . فككل الحيوانات يبحث عن الملجأ الذى يحميه من الاعداء ومن ظروف الطقس غير الملائمة بين أوراق الأشجار الكثيفة وفى شقوق الصخور والكهوف .

وبالرغم من كل هذا فقد كان الانسان يملك مواهب ميزته عن جميع الكائنات الحية الأخرى ، ذلك انه كان قد بدأ فى انتاج ادوات يمكن استخدامها فى اغراض شتى : مثل تحطيم درقة سلحفاة أو كسر عظمة أو تقشير بندقة . وكان اكثر هذه الأدوات بدائية

ازاميل حجرية أو فؤوس بدائية بلا مقابض أو أيدى . وقد تمكن الانسان بكسر ثم صقل الأحجار من أن ينتج أداة ثقيلة وجبارة يصل وزنهـا الى حوالى كيلو جرام لها حرف قاطع حاد من ناحيـة وجزء أملس من الناحية الأخرى للامساك بهـا . وبهـذه الأداة أمكن للانسان أن يقتل الحيوانات الصغيرة ويستخرج الجذور التى تؤكل . كمـا كان فى مكنته استخدامها كسلاح فى مواجهة الوحوش المفترسة الكبيرة أو فى مهاجمة الحيوانات الكبيرة ليزود نفسه بغذاء حيوانى أكثر غناء .

وبالاضافة الى الفؤوس البدائية استخدم الانسان القديم أيضـا أدوات مصـنوعة من الخشب : عصى للحفر مسنونة بالحجر ، حراب الخ ..

وفى زمن متأخر كثيرا من حوالى ٥٠٠ — ٣٠٠ الف عام مضت استطاع الانسان أن ينتج أدوات خاصـة لأغراض مختلفـة مثل الضرب ، والقطع ، والحفر ، وسلخ الحيوانات الخ .. وكان يلزم التوصل لمهارة كبيرة لانتاج مثل هـذه الأدوات ، ولكنها بدورها سهلت عمل الانسان ورفعت من انتاجيته .

وقد تمكن الانسان بصنعه أدوات خاصة تستطيع انزال ضربات قوية ، من أن يشن نضـالا أكثر فعاليـة ضـد عـالم الحيوان المحيط به . وهذا أدى تدريجيا الى ظهور الصـيد الذى بدأ يلعب دورا متزايد الأهمية فى حياة الانسان البدائى . فبدأ يستقر بجوار اماكن الشرب ودروب الحيـوانات حيث يمكن الحصول بسهولة على الغذاء الحيوانى .

وفى بعض الأحيان أدت ظروف الصيد المتحسنة الى منع العشيرة من الهجرة وجعلت الانسان يكيف مأواه المؤقت ليصبح مقرا لمـدة

ند تطول أو تقصر . وهذا أدى الى ظهور مواقع المعسكرات الأولى التى بناها الانسان . وكانت تتكون من مصادات للرياح مصنوعة من الأغصان والحجارة ومن كهوف أعدت للسكن .

وفى وقت متأخر نسبيا وقع حدث هام آخر فى حياة الانســـان القديم : لقد تعلم استخدام النار . فعلى مدى آلاف من السنين كانت النار التى ترهبها كل الكائنات الحية تملأ الانسان بالرعب . وشيئا فشيئا أصبحت صديقة له ، وكان الانسان لعـــدم معرفته بكيفية اشعال النار ، يحمل الأغصان الملتهبة أو الفحومات المدخنة المتبقية عن حرائق الغابات الى مسكنه . فكانت تحميه من البرد كمـــا كانت تبعد عنه الحيوانات المفترسة التى تفزعها النيران . وباستخدام النار استطاع أن ينتج أدوات متعددة مثل عصى الحفر التى سنها وجففها بالنـــار . ولكن ربما كانت الأهمية العظمى للنـــار هى استخدامها فى الطريقة الجديدة لاعداد الطعام . فقـــد بدأ الانسان بشواء طعامه وتحميصه وأخيرا سلقه ، وهذا زوده بغذاء افضل خاصة من اللحم مما ســـاهم فى تطور مخه .

لقـــد أحدث صنع الأدوات واستخدام النـــار تغييرا له وزنه فى أسلوب حياة انسان ما قبل التاريخ ، ذلك أن العمل تطلب نشوء علاقات اجتماعية جديدة . فقد افسحت الغريزة الحيوانية الطريق شيئا فشيئا أمام نوع جديد من العلاقة المبنية على الدور الذى يقوم به الانسان فى الانتاج المـــادى .

تطور العلاقات الانتاجية :

كان الانسان مثل معظم الحيوانات ، يعيش فى جماعات منـــذ المراحل الأولى لتطوره . ولم يستمر الانسان فى تطوير هـــذا النمط

من اسلوب الحياة الجماعى عندما بدأ استخدام الأدوات لأول مرة، فحسب ، بل طوره الى أرقى ، فلم يكن فى مقـــدور الانسان أن يعيش منفردا وأن يزود نفســـه بالطعام وأن يحمى نفســـه من الحيوانات المتوحشة ويجد لنفسه ملجأ من الظروف الجبارة المحيطة به ، بمثل تلك الأدوات البدائية للغاية . فقد اتحد الناس ليحصلوا على الوسائل الضرورية لمعاشهم ومع ذلك فقد كانت تلك الروابط الجـــديدة للعمل ضعيفة الى حد ما فى البـــداية . وكانت الغرائز الحيوانية سائدة ، ولكنه ، بالتدرج فى تطور العمل أمكن أن تتحول تلك التجمعات أو بالأحرى تلك الحشود المتباعدة الى جماعات دائمة مؤسسة على العمل المشترك (الصيد المشترك ، صيد السمك الخ) .

وقد كان العمل الجماعى شرطا لا غنى عنـــه فى كافة عمليات الانتاج فى تلك الأزمنة حين كان هدف الانســـان الأســـاسى هو حصوله على الطعام . وبتطور قوى الانتاج اختفت تدريجيا الحاجة الى العمل الجماعى للمجتمع ككل . وكان تقسيم العمل تبعا للجنس والسن مجرد تطور طبيعى ساعد عليه ظهور أدوات جديدة للعمل وتزويد الكوميون باللحم والجلود الخ ، بينما النساء والأطفال كانوا يجمعون الطعام ويصيدون السمك ويرعون العيال ويربون الأجيال الجديدة . ونتج عن هـــذا التقسيم للعمل زيادة الاعتماد المتبادل بين افراد العشيرة التى كان يجمعها أصل مشـــترك واقتصاد مشترك وحولها الى مجتمع عشائرى مستقر نسبيا أو عشيرة مؤسسة على العلاقات الانتاجيـــة .

وقد تطلب الانخفاض الشديد فى مستوى تطور القوى الانتاجية وانتاجية العمل المنخفضة ، تطلبا أن يساهم كل فرد فى العشيرة فى انتاج الثروة المـــادية بكافة ادوات ووســـائل الانتاج بصفتها ملكيتهم العـــامة . وبما أن الأدوات كانت ملكية عامة فكل شىء

تنتج مشتركا أصبح ملكا مشتركا وقسم بالتساوى بين أفراد العشيرة . وعلى هذا كانت الملكية العامة هى النوع الوحيد من الملكية الذى وجد فى مجتمع العشيرة فى ذلك الوقت . فلم يكن عدم المساواة فى الملكية معروفا ، وتمتع جميع الأفراد بحقوق متساوية. وكان نفوذ أى فرد فى العشيرة يتوقف على المركز الذى يشغله فى حياة العشيرة ، اى فى عملياتها الانتاجية . وكان الاعتبار الأول يعطى لخبرته ومهارته وقوته الخ . وكان الزعيم الذى يختار للصيد أو للأغراض الأخرى المشتركة يختار من بين الأفراد الأكثر تجربة واحتراما وتدين له بالسلطة العشيرة كلها .

وبتقسيم العمل بدأت المرأة تلعب الدور الرئيسى فى المجتمع . فصناعتها المنزلية خلقت وسائل للعيش أكثر انتظاما ويمكن الركون اليها من مهنة الصيد عند الرجال . وبالاضافة الى ذلك كانت الأم هى سيدة المجتمع وكانت تعتبر ربة العشيرة كلها . وكانت تحصل على وسائل المعيشة الضرورية وتربى الأجيال الجديدة . وعلى هذا فقد نمى نفوذها ودورها فى مجتمع العشيرة البدائى بثبات ، وتعرف مثل هذه المجتمعات بالعشيرة الأموية .

نشأة النوع الحديث من الانسان :

منذ أكثر من ٦٠ الف سنة مضت ، طورت عوامل مثل العمل ، والكلام ، والحياة الاجتماعية ، طورت الانسان بيولوجيا الى الحد الذى يصعب فيه التمييز فى بنيانه التشريحى والشكل الخارجى بينه وبين الانسان المعاصر ، وقد سمى علميا « هوموسابينز » .

وقد وضع ظهور هوموسابينز ـ حدا لتطور الانسان بيولوجيا وفتح أمامه آفاقا فسيحة لنمو العلاقات الاجتماعية والثقافية المادية والروحية . وقد أمكن للانسان التوصل الى نتائج بارزة

فى هــذا الصدد ، ويمكن ملاحظـــة التقــدم فى التطور الاجتماعى للانسان مع كل يوم يمر .

وفى ذلك الزمن استوطن ما يسمى بالانسان الحديث فى أوروبا وآسيا وافريقيا . وبعد ذلك بمــا يقرب من ١٥ الى ٣٠ الف سنة مضت وصل الانسان الى القارة الأمريكية عن طريق مضيق بهرنج . وبالرغم من المشاق الهائلة التى واجهتهم أثناء هذه الهجرة مثل العزلة عن الشعوب الأخرى وعدم وجود حيوانات قابلة للاستئناس فان الهنود الحمر وهم سكان امريكا الأولون انتشروا فى القـــارة كلهـــا ، وكانوا أول من زرع بعض النباتات الغذائية الهامة مثل الذرة والبطاطس . ومع ذلك فان شتى الصعوبات التى أحاقت بالهنود الحمر اعاقت تطورهم الاجتماعى . وبعد ذلك بعدة قرون كاد المستعمرون الأوروبيون أن يقضوا عليهم كليـــة . وفى نفس الوقت تقريبا من حوالى ١٠ آلاف سنة مضت بدأ الانسان استيطان استراليا . ولكن ظروفا أكثر جبروتا مما واجهت الهنود الأمريكيين عطلت تطور القبائل الاسترالية . ومع أن النتائج التى توصـــل اليها الاستراليون رغم ذلك تستحق الثنـــاء فان هـــذا لم يمنع استعماريو القرن التاسع عشر من ابادة العديد من قبائل القارة الأصليين بلا رأفة .

ولقد وضع استيطان الانسان لمناطق جديدة ، وضعه فى مواجهة ظروف جغرافية متنوعة . فقد عاشت بعض الشعوب فى الغابات الاستوائية الرطبة وشعوب أخرى تحت أشعة الشمس اللافحة فى الصحارى أو بين ثلوج الشمال بينما لم تعرف شعوب أخرى الا الطقس المعتدل . وعلى هـــذا تكونت أجناس انسانية مختلفة تشمل انماطا من الشعوب تميزها عن بعضها البعض عدد من المظاهر

الثانوية التافهة (لون الجلد ، شكل الأنف ، الشفاه ، العيون ، الشعر الخ.) . وكان لعزلة الشعوب المختلفة وحياتهـا تحت ظروف مناخية مختلفة اثر ملحوظ على تكوين الأجنـاس . وقد تكونت السمات العرقية (الجنسية) المميزة خلال الفترة التى تلت نشأة الانسان الحديث وليس لهـا تاثير من أى نوع كان على الكائن الانسـانى .

فكل المخلوقات الانسانية من أصل واحـد . والناس من كل الأجناس متساوون فى قدراتهم الجسمانية والعقلية والروحية . وكما سبق أن قررنا فان الملامح العرقية نشأت نتيجة الملاءمة التى استغرقت زمنا طويلا بين الكائن الانسانى وبين الظروف الطبيعية المعاكسة . وبما أن الانسان أصبح الآن مستقرا بيولوجيا فلم يعـد فى امكانه أن يلائم نفسـه مع بيئته عن طريق تغييرات بيولوجية لاحقة . وقد تعلم أن يلائم نفسه مع بيئته بخلق وسائل متعـددة للحماية من مختلف الظروف الجوية المعاكسة فيحمى الانسان راسه فى المناطق الاستوائية من شدة الحرارة بارتداء خوذة الخ) .

ومن أجل تبرير سياسة القمع الاستعمارية اخترع الامبرياليون عددا من النظريات غير العلمية مؤداها أن تفوق الجنس (الأبيض) على الشعوب (الملونة) مقرر سلفا ، وان التمييز العنصرى هو مفتاح انحطاط وتخلف الشـعوب التى تقطن افريقيـا وآسـيا وامريكا اللاتينية . لقد أوضحنا فيما سبق أن الشعوب من كافة الأجناس متكافئة بيولوجيا . وتخلف شعب تقرره المظـاهر المعينة لتطوره التاريخى . وقد أعطى التاريخ نفسه براهين كافية على أن جميع الشعوب كان لهـا مستوى مرتفع من الثقافة وكانت تعمل على تطويرها قبل حلول الاستعماريين . ولقد كانت سياسة الامبرياليين الأوروبيين والأمريكيين الاستعمارية الى لا ترحم هى التى اوقفت

تطور شعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لفترة طويلة وحطمت كل منجزاتها واحتجزت أكثر ممثليها كفاءة فى اسار قبضة الاستعمار وكثيرا ما أبادت شعوبا بأكملها . ولقد دحضت النجاحات الهائلة لشعوب كثيرة من افريقيا وآسيا واميكا اللاتينية التى القت عن كاهلها النير الاستعمارى وسارت فى طريق الاستقلال ، دحضت مرة أخرى كافة النظريات العنصرية . ويلجأ الامبرياليون لهذه « النظريات » لابعاد الشعوب عن بعضها ولكى يمنعوا نضالهم المشترك من أجل السلام وضد أخطار حرب ذرية . وهم يستخدمون هذه «النظريات» لتقويض وحدة حركة العمال الدولية ولزرع بذور العداوة والبغضاء بين العمال من « الجنس الأبيض » والشعوب « الملونة » واضعين حركة تحرير شعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى تضاد مع نضال البروليتاريا الأوروبية وبالخصوص فى تضاد مع نضال شعوب المعسكر الاشتراكى ضد الامبريالية . وهذه هى الأسباب الحقيقية فى التمييز العنصرى الامبريالى ضد الجنس الزنجى وما يروجونه لما يسمى بنظرياتهم عن الطريق الخاص بتطور الشعوب «الملونة».

وبدون اى أساس علمى مثل كل « النظريات » العنصرية ، لا تخدم هذه « النظريات » الا القوى الرجعية التى تعارض التطور التقدمى لجميع الشعوب وتقف ضد حرياتها الحقيقية واستقلالها .

٢ ـ العصر الذهبى للمجتمع البدائى

استمرار تطور القوى الانتاجية للنظام المشاعى البدائى :

ادى استمرار تطور الأدوات الحجرية والانجازات الأخرى فى تطور القوى الانتاجية الى تقدم المجتمع الانسانى . وقد بدأ الانسان تشكيل أدواته الحجرية بخبطها بعضها ببعض ثم تعلم بعد ذلك كيف يبرى قطع الصوان الحادة ويركب لها مقابض خشبية .

فيما بعد أخـذ فى صقل وتجليخ الأحجار وصنع رؤوس الحرابه صوانية والسكاكين ، والمناجل والعدد القاطعة الأخرى . وقـد فعت كل هـذه الابتكارات من انتاجية الانسان .

وكان اختراع القوس والسهم احـد الاختراعات الهامة لذلك لعصر مما جعل الصيد واحدا من أهم الحرف الاقتصادية لـدى طويل . ولم يزود هذا النشاط ، الانسان بغذاء حيوانى فحسب ، ل زوده بالجلود التى صنع منها ملابسه واكثر من ذلك صنع منها مسكنا له ، ومن قرونهـا وعظامها صنع ادواته ، وقد تطور الصيد خطوة خطوة مع صيد السمك الذى حفز بدوره مهارات وعادات جديدة . وبتطور انتاجية العمـل تخلى الانسان عن حرفة جمع الطعام وتبنى تدريجيا أسلوب حياة مستقرة وبدأ فى بنـاء ماوى ومساكن دائمة كثيراً ما كانت هذه اكوام من المسـاكن مبنية فى منحدرات البحيرات والأنهار .

وقد مكن نمو انتاجية العمل والتحول الى اسلوب حياة مستقرة مكنا الانسان من اكتشاف الزراعة البدائية . فقد خطر له أن حبوب النباتات يمكن أن تزرع بجوار مسكنه وبذلك تزوده بالمأكل . وكانت الذرة العويجة والجودار والشعير والقمح اولى محاصيل الطعام التى زرعها الانسان . وقد بدأ ظهور الزراعة المستقرة فى منـاطق ملائمة لنمو المحاصيل (فى بلاد ما بين النهرين ، وفى وادى النيل ، وفى الهند ، وفى ايران وفى اوكرانيا الخ) . واصبحت تدريجيا الحرفة الاقتصادية الأساسية لتلك المناطق .

وتكاد تكون كل محاصيل الحقل الحالية قد تم للانسان معرفتها فى عصر مجتمع العشيرة البدائى .

وقد جعل التحول الى الزراعة المستقرة جعل الانسان اكثر استقلالا عن بيئته ، ذلك أن المستوى العالى نسبيا لانتاجية العمل التى أمكن الوصول اليها فى الزراعة ، مكن الانسان من أن يدخر رصيدا معينا من الطعام لاستخدامه فى حالات الكوارث الطبيعية ، أو العجز فى المحاصيل او الصيد .

وقد اكتشف تربية الماشية فى نفس الوقت تقريبا . فقد أخذ الانسان يزود نفسه بمورد احتياطى من اللحم الطازج من الحيوانات البرية التى يطاردها الى أماكن مسورة وشيئا فشيئا تبين الانسان أن الحيوانات يمكن أن تستأنس وتتوالد وهى فى الأسر . وكان الاهتمام بها أولا كمصدر للحم واللبن ولم تستخدم كحيوانات للجر الا مؤخرا .

وكانت الكلاب أول حيوانات تستأنس وكانت تستخدم فى صيد البقر والخراف والماعز والخنازير . ومن نحو ثمانية الى تسعة آلاف عام مضت انتشرت تربية الماشية فى مصر ووسط وشرق آسيا والهند والصين وأوروبا وأفريقيا .

ولم تزود تربية الماشية الانسان بالطعام فحسب ، بل أعطته الجلود ومنتجات أخرى ضرورية لبقائه .

ومع ذلك لم تكن الزراعة وتربية الماشية حرف ذلك العصر وحدها . فقد كانت هنالك قبائل تعيش فى ظروف جغرافية بالغة القسوة وكانت تعتمد فى معاشها كلية على الصيد وجمع الطعام . وقد اكتشفت هذه القبائل القوس والسهم وتعلموا صنع مصايد للحيوانات وادخلوا وسائل أرقى فى دبغ الجلود الخ . وقد اكتسب جامعو الطعام معرفة ذات قيمة عن عالم النبات المحيط بهم ،

شملت الخصائص العلاجية للعديد من الأعشاب الطبية واستخدام الألياف النباتية . وبانتاج أدوات جديدة وتراكم خبراتهم وخبرات العشائر المجاورة نموا هم أيضا اقتصادهم على أسس اكثر تقدما .

التغيرات في العلاقات الانتاجيـــة :

لم تخلق الزراعة البدائية ولا تربية الماشية اى جديد فى شكل الملكية . فالملكية العامة لوسائل الانتاج كانت لا تزال هى الشكل الوحيد من الملكية ، ذلك ان الزراعة وتربية المـــاشية فى الحظائر كانت تتطلب المجهودات المشتركة لكل العشـــيرة ، وبذا اقتضت الملكية العامة لوسائل الانتاج الرئيسية ، العمل المشترك وشملت الأرض ومراعى الصيد الخ . وكانت المساكن مملوكة ملكا عاما ، ذلك أن الناس ظلوا يعيشون فى مساكن جماعية كبيرة كان يشترك فيها فى بعض الأحيان بضع مئين من النـــاس .

وقد قوى التحول الى طريقة مستقرة من المعيشة ، من الروابط الاقتصادية والانتاجية بين قبائل شتى . فمن اجل الدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش المفترسة ولحماية مخزونهم من الطعام ومساكنهم من غارات الأعداء من جيرانهم ، اتحدت العشائر المتجاورة فى قبائل . ادت العلاقات القبلية الى ملكية القبيلة . ولذا اعتبرت الأرض التى تستخدمها القبيلة كموطن اقامة لها ومراعى الصيد وصيد الأسماك ملكية للقبيلة وكان لتحول العشائر الى قبائل اهمية قصوى فى نشر المهارات الانتاجية ونهضة اللغات القبلية والثقافات القبلية .

وعلى الرغم من ظهور الملكية القبلية ، الا ان كل عشيرة احتفظت باستقلاليتها فى تقرير المسائل المتعلقة بالحيـــاة الداخلية للعشـيرة ،

والاحتفاظ بمراعى الصيد الخ كملكية للعشيرة . وبنشوء شكل اكثر شمولا من الوحدة القبلية اكتسبت الملكية العامة صفات أكثر شمولا ولو أنهـا بقيت فى جوهرهـا على ما هى عليه .

وقد توافق نظام ادارة العشيرة والقبيلة بأكمله مع علاقات الانتاج المشاعة البدائية . فكافة شئون العشائر والقبائل كانت فى أيدى الرؤساء ومجالس القبائل التى ينتخبها افراد القبيلة . وكان نفوذ الرئيس يتوقف فقط على ميزته الشخصية وخبرته ومهارته فى الصيد وشجاعته فى الحرب وحكمته . ولم يكن من الممكن وراثة سلطة الرئيس ولم تكن لتعطى صاحبها ميزات خاصة بالملكية عمـا لدى افراد القبيلة الآخرين . ولم يكن لدى المجتمع المشاعى البدائى اى مؤسسات للدولة ، فحكومة العشائر والقبائل كانت مؤسسة على مبادىء الديمقراطية القبلية أى المساهمة المتكافئة لجميع أفراد المجتمع فى شئون الجماعة .

نشـأة الفن والدين :

ويتطور الانسان زادت معرفته بالعالم المحيط به ــ المجتمع الذى يعيش فيه ــ أولا وقبل كل شىء بالانتاج الاجتماعى للثروة المـادية .

وقد اكتسبت كل ظاهرة اجتمـاعية نموذجا متباينا عن غيره فى وعيـه .

وقد حاول الانسـان التعبـير عن الظواهر المتنوعة لوجوده الاجتماعى بالصور . وقد أدى هـذا لنشوء الفن كأول انعكاسات الحقيقة .

وكثيرا ما تبدت الحجارة والصخور المشكلة بمحض الصدفة للانسان كما لوكانت تشابه حيوانات مختلفة ، وعلى ذلك بدأ فى اظهار التشابه بشكل أبرز بتشكيل وتلوين أكثر الصخور ملاءمة . وتعلم كيف يصنع صورا للناس وغطى جدران الكهوف بصور من الحياة . وكثيرا ما كانت هذه الصور واقعية للغاية ، وكثيرا ما صور مناظر الصيد وميادين الحياة اليومية الأخرى . وقد أتاحت له حياته اليومية مجالا فسيحا لرسومه الحائطية .

وعلى هذا لم يعدو الفن ، منذ نشأته ، ان يكون انعكاسا لبيئة الانسان ممثلا فى صور معينة .

وعندما بلغ المجتمع البدائى أوج مجده ، كانت معرفة الانسان للظواهر الطبيعية التى تشكل بيئته قد أصبحت دقيقة الى حد كبير من وجهة النظر السطحية ولكن ليس بالدرجة الكافية التى تعطيه فكرة صحيحة عن جوهر هذه الظواهر . فلم تكن لدى الانسان البدائى القدرة على تفسير العلاقات القائمة بين مختلف الظواهر وتتابعها وتأثيرها على حياة الناس . وقد أدى قصور الانسان الدائم فى مواجهة القوى الطبيعية ومعرفته الناقصة بقوانينها الى بدأ الأفكار الدينية عن وجود قوى فوق الطبيعة تسيطر على جميع مناحى حياة الانسان .

وقد نشأت الأفكار الدينية منذ ما لا يزيد عن ٣٠ — ٤٠ الف عام مضت . وكان ذلك هو الزمن الذى استحدث فيه الانسان مفهومه الخيالى عن الحيوانات كأسلاف للناس وحماة لهم (التوتمية) . وفى سعيه للحصول على رضاه والتخفيف عن حياته الشاقة كان الانسان يتملق ويترضى حيوانا معينا . وبدأ يعتقد فى « الكائنات الروحانية » اللامادية التى افترض أنها مزودة بقوى فوق الطبيعة

(مذهب حيوية المـــادة : حضور الأرواح فى جميـــع الموجودات الطبيعية) . وقد نشأت حيوية المـــادة مثلما نشأت التوتمية عن عجز الانسان البدائى عن فهم قوى الطبيعة . فقد حقق الطبيعة فى ذاته وصورها ككائن لامادى دون صـــفات انسانية وقوى فوق الطبيعة . فأله قوى الطبيعة ــ الرعد ، والبرق ، والأنهـــار ، والغابات وعبد آلهة الرعد ، والمـــاء الخ . وقد أدى هـــذا الى استخدام مختلف الرقى والتعاويذ والشعائر الوثنية . وكان الانسان يعمل على ترضى قوى ما فوق الطبيعـــة التى كان يؤمن بها وذلك بالقرابين التى يقدمها للآلهة .

ولمـــا كان الموت أبعد من ادراك الانســـان فقد ملأه بالرعب والخرافة . وكان يخاف بشكل خاص من موت المحاربين والرؤساء الأقوياء ، وكل الذين كانت لهم سيطرة على الأفراد العـــاديين فى المجتمع ، ونسب قوى خارقة للطبيعة لهياكل بل وحتى صور الموتى . وشيئا فشيئا توصل الانسان الى فكرة وجود عالم خيـــالى بعـــد القبر تسكنه أرواح الموتى .

وعلى هذا فقد أدى عجز الانسان فى مواجهة الطبيعة الى ظهور الطقوس الدينية القديمة ، وهى بدورها أبقت الانسان فى حالة من الجهل والعجز وعاقته عن فهم العـــالم وقوانينه وعاقت تقدمه .

٣ ــ تحلل النظام المشاعى البدائى

تطور القوى الانتاجية فى العصر الحديدى :

فى وقت ما من الالف الثـــامنة قبل الميلاد تعلم الانسان كيف يستخدم المعـــادن الغفل فى انتاج الآلات . الا أن المعادن لم تجـــد

تطبيقات واسعة حقـا الا فى الألف السادس قبل الميـلاد عند
تعلم الانسان صهر المعـادن وصنع السبائك . وقد مكنته الآلا
المعدنية من رفع انتاجية العمل والتوصيل الى تقـدم ملحوظ
تطوير كافة قوى المجتمع الانتاجية .

وباستخدام الأدوات المعدنية اكتشف الانســان طرقا أكفأ
معالجة الحجارة والقرون والخشب . وتعلم كيف يصنع الفؤو
والشراشر المعدنية وأدوات الزراعة الأخرى وصنع أول آلاته .
عجلة الفخار ونول بدائى . وكان للأدوات المعدنية تأثير هائل عل
تطور الزراعة . ففى المناطق الحارة المجدبة حيث كانت الزراء
ممكنة فقط على سفوح الجبال بنى الانسان قنوات وسدودا للرى

وبنيت القنوات فى الوديان الخصبة بنقل المياه من الأنهار ا
الأراضى الزراعية خلال فصل الجفاف . وفى المناطق الأقل خص
قطع الانسان الأشجار وأحرق فروعها وجذورهـا لتمهيد الأر
للزراعة . وكان الانسان يرتحل للبحث عن ارض جديدة خصـ
عندما تفقد التربة خصوبتها . ففى العصور القديمة كانت هـ
الطريقة فى الزراعة متبعة على نطاق واسع .

وكانت الأداة الزراعية الرئيسية المستعملة فى الأراضى المرو
وأرض الغابات المحروقة هى الفأس الحجرية ، وبعد ذلك بديله
المعدنى . ومن هنـا نشأ اسم الزراعة المعزوقة ، احدى خلواه
ذلك العصر النموذجية . وقد رفع استخدام الفـأس المعدنى
مستوى الزراعة ، وجعل الزراعة الحرفة الأساسية للشعوب ال
تعيش فى مناطق ملائمة . بينما تحولت القبائل التى كانت حرفة
الأساسية الصـيد شيئا فشيئا ، الى تربية المـاشية التى كان
اكبر انتاجية .

وكان تطور الزراعة وتربية الماشية خطوة هامة الى الأمام فى تقدم المجتمع الانسانى . وقد اعطى عمل الانسان الدؤوب العالم انواعا جديدة من النبات وغالبية الحيوانات المستأنسة المعروفة لنا اليوم . وبدأ الانسان فى تكديس الثروة المادية . فقد زاد انتاج العمل ومعه اتى التطور السريع فى المجتمع .

التغيرات فى انتاج الثروة المادية :

ان تخصص مختلف القبائل فى الزراعة وتربية الماشية أدى الى اول تقسيم اجتماعى كبير فى العمل . فتطور قوى الانتاج للقبائل التى تعيش على تربية الماشية وعلى الزراعة كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بحرفهم المحددة واعتمد على علاقاتهم المتبادلة . وبفضل هذه العلاقات أمكن استخدام الحمار والبقرة والحصان كحيوان جر فى الزراعة وادى ذلك بالتالى الى ادخال أدوات جديدة كسلاح المحراث المعدنى الذى ظهر فى بلاد ما بين النهرين وفى الهضبة الايرانية فى الألف الخامس قبل الميلاد .

وأدى استخدام المعادن الى حدوث تغييرات جذرية أخرى . فقد تطلبت الحرف الجديدة مثل صهر خامات المعادن وصناعات المعادن والفخار ، تطلبت أدوات خاصة وظهور قسم خاص من الناس يمتلكون المعرفة والمهارة اللازمة .

وقد كون الحرفيون مجموعة منفصلة فى المجتمع . وقد كان الجزء الاكبر من عملهم ينفق فى انتاج الآلات والأشياء الأخرى التى يتطلبها المجتمع ليس فى انتاج بضائع لاستهلاكهم الخاص . وعلى هذا فقد أصبح الانقسام الثانى للعمل ممكنا حينما مكن تطور القوى الانتاجية المجتمع من ان يشبع الى درجة كبرت أم صغرت ، مطالب

جميع أفراده بمافيهم اولئــك الذين لا يشتغلون فى انتــاج الموا
الغذائية بأنفسهم ولكنهم يشتغلون فى أعمال ضرورية اجتماعيا .

وقد استتبع التقسيم الأول والثــانى للعمل تدعيم الروابط بير
المجتمعات المختلفـــة . فقــد أدت الزيادة فى انتاجية العمل داخل
المجتمعات الرعوية الى وجود فائض فى المــاشية والجلود والصوف
واللحم والمنتجات الحيوانية الأخرى . ومع ذلك كان ينقص هــذ
المجتمعات الحبوب والخضروات والمنتجات الزراعية الأخــرى
وفى الناحية الأخرى كان هنــاك فائض فى المنتجــات الزراعية فى
المجتمعات الزراعية مع نقص فى المنتجات الحيوانية . وبذلك نشأ
ظروف التبادل الاقتصادى المنتظم بين المجتمعات . وبما أن البضائ
المنتجة داخل المجتمع كانت حصيلة عمل مشترك وعلى ذلك كان
ملكية مشتركة ، وكان التبادل يتم بين المجتمعات بكاملها ، اى أ
المنتجات المتبادلة كانت ملكية مشتركة لجميع الأفراد مثلما انهـ
منتجات عملهم المشترك .

وشيئا فشيئا اكتسب التبادل صفة العادة وأصبح مرتبطا ارتباط
وثيقا بالانتاج ومؤثرا فيــه . وكانت المــاشية هى اداة التباد
الأساسية وفى زمن تال اضيف لهــا المعادن والبضائع المعدنيـ
والآلات وادوات الزينــة الخ .

وقد احدثت التغييرات فى العــلاقات الانتاجية تغييرات دفينة
حرفة الرجال . وهــذا يفسر نمو تفوق الرجل الاقتصادى على المر
فى مجتمعات تربية المــاشية ــ فقد أصبح عمل الرجل المصــد
الرئيسى لثروة المجتمع المــادية . بينما تمت تغييرات من هــذ
الحياة الاجتماعية للعشيرة . وظلت تربية المــاشية ، مثل الصب

القبيل فى زمن متأخر عن ذلك بكثير فى المجتمعات الزراعية . ولكن عندما أصبحت الزراعة تلعب دورا هاما فى الحيـاة الاقتصادية ، انتخب أقوى الرجال لكى يفلحوا الأرض . وبادخال المحراث أصبحت الزراعة مقصورة على الرجال بنوع خاص .

وبمـا أن عمل المرأة فى مجتمعات تربية المـاشية والمجتمعات الزراعية اقتصر شيئا فشيئا على المنزل فقد أصبحت ذات أهمية ثانوية كمصدر للثروة المـادية . وبينما زاد دور الرجل بصفتـه منتجا للبضائع وتوقفت رفاهية المجتمع عليه كلية ، فقد اكتسب دورا قياديا فى الحياة الاجتماعية . وتسمى المجتمعات التى يلعب فيها الرجل دورا قياديا بالمجتمعات الأبوية . وكمـا حدث من قبل فان رئيس العشيرة وقد أصبح الآن من الرجال ، فان كل البالغين من الرجال والنساء هم يختارونه وكانت سلطته ذات صفات معنوية مبنية فقط على الاعتراف بنفوذه وملكاته . ولم تؤد هـذه التغيرات المحددة مع ذلك الى انقسام المجتمع الى طبقـات .

أزمة القوى الانتاجية داخل المجتمع البدائى :

لقد نمى الانتاج حينذاك الى الحد الذى أنتج فيه العمل الانسانى أكثر مما كان مطلوبا لمجرد اعاشة المنتج وعائلته . ونتاج العمـل الفائض هـذا يسمى فائض الانتاج ، بينما يسمى العمل اللازم لانتاجه بفائض العمل .

وقد فتح ظهور فائض الانتاج الطريق امام استغلال الانسـان للانسان .

ولم يعد يتطلب انتاج الثروة المـادية فى ذلك الوقت اندماج

النـــاس فى وحدات انتاجية كبيرة . وقد اخذ افراد العشيرة يتخذون لأنفسهم حرفا مختلفة وتنوعت الانتاجية لمختلف العمليــات ، وبدا يتغير الدور الذى كان يشغله افراد المجتمع فى العمل المشـــترك . وقد أدى هذا الى عدم التناسق بين علاقات الانتــاج والمســتوى الذى بلغته قوى الانتاج النامية . وتحولت علاقات الانتاج المبنية على الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع المتســاوى لمنتجات العمل على افراد المجتمع ، تحولت شيئا فشيئا الى قيود ، تعوق تطور القوى الانتاجية . وكان من المحتم أن تفسح الطريق أمام علاقات انتــاج جديدة بين النــاس .

وبدلا من المجتمع العشائرى ، أصبحت الأسرة الأبوية هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع . وحلت العلاقات الاقتصادية محل رابطـة الدم بين الأسر . وكان على المجتمع العشائرى أن يفسح الطريق للمجتمع الاقليمى أو مجتمع الجيرة المؤسس على المصلحة الاقتصادية المشتركة .

وقد احتفظ جزئيا بالعلاقات القديمة فى المجتمع الاقليمى . فمثلا كانت الأرض وهى وسيلة الانتاج الرئيسية ، لا تزال معتبرة ملكية عامة ، مع أن كل أسرة كانت تزرع قطعتها الخاصـــة من الأرض وتدير شئون أهل منزلهـــا . وعند القبائل الرعوية أصبحت القطعان ملكية خاصة لكل أسرة بذاتها . وأصبحت البضائع التى تنتجها الأسر الأبوية للأسرة . وكانت المـــاشية والأمتعة المنزلية ووسائل الانتاج المختلفة ، ومنتجات العمل الفردى ، كانت العناصر الأولى للملكية الخاصة التى نمت على حساب الملكية العاملة المتناقصة .

واصبحت الملكية الخاصة وراثية ، وقضت على المساوات السابقة بين أفراد المجتمع . وقد ادى ظهور الملكية الخاصة الى التبــادل

بين الأفراد داخل المجتمع وهذا بدوره أدى الى ازدياد عدم المساواة فى الملكية بين الأفراد .

وفيما بعد أدى نمو انتاجية العمل الى الملكية الخاصة للانسان منتج البضائع المادية . وحينما كان الانسان ينتج من أجل احتياجاته الخاصة المباشرة لم يكن من الممكن أن يوجد استغلال الانسان للانسان ، ولكن حينما أنتج اكثر قليلا مما يحتاجه لمجرد اعاشته فقد أصبح من الممكن اجبار الانسان على العمل لمالك وسائل الانتاج الذى استولى على فائض الانتاج الذى خلقه العامل .

وكان أسرى الحرب هم أو المستغلين . فقد حولهم غزاتهم الى عبيد محرومين من كافة الحقوق ويحتفظ بهم طالما كانت لديهم القدرة على تزويد سادتهم بفائض انتاج . فاذا ما تحول العبد الى عبء على سيده فقد كان للأخير كل الحق فى التخلص فيه .

وعلى ذلك تميزت المرحلة الأخيرة فى المجتمع البدائى بظهور العبيد بين المنتجين الأحرار . وكان العبد يعمل لزيادة ثروة سيده بدلا من اشباع احتياجاته الحيوية . وقد فتح ظهور العبودية صفحة جديدة فى تاريخ الانسانية وابتدأ استغلال الانسان للانسان . وأصبح المجتمع الذى كان مؤسسا فى الماضى على ملكيته العامة لوسائل الانتاج ، أصبح مقسما الى ثلاث مجموعات اجتماعية رئيسية طبقا لعلاقات كل مجموعة بوسائل الانتاج .

فأولا ، كان هناك العبيد الذين لم تكن لديهم ممتلكات خاصة أيا كانت وكانوا هم أنفسهم ملكا لسادتهم . وثانيا ، كان هناك ملاك العبيد ، الذين كانوا بما يملكون من وسائل الانتاج ، كانوا أيضا سادة العبيد الذين كانوا يستغلونهم ، وأخيرا ، كان هناك

الاعضاء الأحرار فى المجتمع الذين كانوا يقومون بأود اهل بيوتهم الصغيرة بعملهم الخاص وبالأدوات والوسائل التى فى حوزتهم . وكثير من هؤلاء الرجال الأحرار سقطوا تدريجيا فى مهاوى الفـاقة وتحولوا الى عبيد .

وبذلك اصبح المجتمع مقسما الى فرق اجتماعية كبيرة تسمى بالطبقات تتحدد سماتها بعلاقاتها بوسائل الانتاج . ولم يعد عمل الأفراد الأحرار فى المجتمع هو المصدر الرئيسى للثروة المادية. فبعد أن عمر نظام المجتمع المشاعى البدائى حتى شاخ ، حل محله تكوين اقتصادى اجتماعى جديد هو النظام العبودى .

الباب الثانى

مجتمع ملاك العبيـــد

---

١ ــ مجتمعات ملاك العبيد فى آسـيا وافريقيا

لقــد ادى تماسك وتدعيم الطبقة الجديدة من المستغلين ، طبقة ملاك العبيد التى بدأ ظهورها من بطن النظام المشاعى البدائى وكذلك انتشار العبودية ، أديا الى ظهور المجتمع العبودى . وقد كان اسلوب الانتاج العبودى خطوة هامة على طريق تقدم الانسان ، لأنه وضع أقساما معينة من المجتمع خارج اطار عملية العمل ، وقد أصبح ذلك ممكنا نتيجة ظهور ونمو فائض الانتاج .

العبودية المشاعية والأبوية

وفى تاريخ تطوره مر النظام العبودى بعدة مراحل يعرف أولهـا بالعبودية المشاعية . وقد بزغت من داخل اطار النظام المشاعى البدائى عندما لم تكن الملكية المشاعية قد تفتت وعندما كان العبيـد ملكية مشاعية أيضـا . وكانت العبودية الأبوية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعبودية المشاعية ، وقد نشأت هى أيضا من بطن المشاعية البدائية وبقيت قائمة لفترة طويلة جنبـا الى جنب مع العـلاقات المشاعية البدائية .

وظل العبيد يشكلون اقلية ، كمـا ان عملهم كان لا يزال يلعب دورا ثانويا فى عملية الانتاج . وحتى العبودية نفسهـا كانت مغلقة واتخذت فى الغالب طابع اسداء المساعدة لأعضاء فى نفس العشيرة أو نفس القبيـلة .

وفى مقابل حفنة من الطعام ، لا تكفى الا لرد غائلة الموت جوعا ، كان أسير الحرب ، وعضو الجماعة الذى دفع الى قاع الفقر يجبر على العمل لمصلحة واحد من أثرياء العشيرة . ومع نشوء وتطور نظام الملكية الخاصة نشأت وتطورت حقوق الامتلاك لتشمل السلع ومنتجيها . ومن هنا انحدر عضو العشيرة واسير الحرب « المتبنى » الى منزلة العبد القانونية ، وأصبح بالأخرى ملكية شخصية لسيدة.

وتكفلت الحروب ، والتجارة فى العبيد ، واسترقاق المدنيـين المفلسين من أبنـاء العشيرة بخلق مصدر مستمر للعبيد . ولقـد كانت هـذه المصادر ، اذا ما استثنينا بعض التباين والخروج على القـاعدة هنـا أو هناك ، ظاهرة عامة سادت التطور التاريخى للمجتمعات العبودية فى كل القارات .

الطبقـات :

كان النظام العبودى هو أول نظام شـهد انقسام المجتمع الى طبقات انقساما تحدده العوامل والعلاقات الاقتصادية كما ذكرنا من قبـل .

فالطبقات تتسم بما بينها وبين وسائل الانتاج من علاقات لأن

هذا العامل الرئيسى هو الذى يحدد كل القسمات الأخرى الخاصة بالتمايز الطبقى ومنها المركز الذى يشغله الانسان فى الانتاج الاجتماعى ومقدار ومصادر دخله .. الخ . ومن ثم يحق لنا أن نقول أن الطبقات مجموعات كبيرة من الناس تختلف الواحدة منها عن الأخرى بالمنزلة التى تشغلها فى اطار نظام تاريخى معين من بين انظمة الانتاج الاجتماعى ، وبالعلاقات التى تربطها بوسائل هذا الانتاج (وكثيرا ما تتواجد هذه العلاقات فى صيغها وانماطها القانونية) وكذلك بالدور الذى تلعبه فى التنظيم الاجتماعى للعمل وبالتالى من خلال نصيبها من الثروة الاجتماعية والأسلوب الذى تنتهجه للحصول على هذه الثروة .

وكثيرا ما يكون فى المجتمع الواحد أكثر من طبقتين تنقسم بدورها الى طبقات أساسية وأخرى ثانوية . والطبقات الأساسية هى التى يخلقها الأسلوب الانتاجى السائد فى هذا المجتمع . ففى المجتمع العبودى مثلا يشكل الملاك وعبيدهم هاتين الطبقتين الأساسيتين الى جانب الفلاحين الأحرار والحرفيين والمجموعات الاخرى التى تشكل الطبقات الثانوية ، والتى تجد تفسير وجودها فى حقيقة هامة هى ان النظام الاجتماعى الاقتصادى السائد فى المجتمع كثيرا ما ينطوى على بعض من مخلفات التشكيلات التى سبقته ، وبعض آخر من مكونات المجتمع اللاحق أو عليهما معا . وبالتالى فان مآل هذه الطبقات الثانويية اما الزوال بفعل التطورات الجديدة التى تطرا على طريقة الانتاج السائدة ، واما القيام على العكس من ذلك بدورها فى المستقبل ، ذلك أن عناصر المستقبل تأخذ فى النمو والتطور مع كل دعم تكتسبه طريقة الانتاج الجديدة ومع الضعف والتحلل اللذين يصيبان النظام السائد .

نشوء الدولة :

ومع الاتســاع فى عــدد العبيــد أخــذ التعارض بين الطبقتين الأســاسيتين : الملاك وعبيــدهم يشــتد ويحــتدم . ذلك أن استغلال العبيد لم يكن أول أشكال الاستغلال فى تاريخ الجنس البشرى فحسب بل كان فوق ذلك أقسى وأكثر هذه الأشكال وحشية.

ولم يكن الفلاحون الأحرار الذين عاشوا على الكفاف ، معرضين لخطر الاستعباد الذى يحل بهم فى أى وقت بسبب ديونهم أحسن حالا من العبيد الا بشكل طفيف لا يذكر .

وأصبح الملاك وهم يسعون الى استغلال العبيد والاحــرار واخضاعهم الى الأبد ، فى سبيل مضاعفة ثرواتهم الخاصة وارضاء بخلهم الذى لا ينتهى ، فى حاجة الى جهاز دائم للكبت والقهر ، هو الذى تدرج ليتخذ شكل الدولة .

وكان كبت الطبقات المستغلة واحدة من الوظائف الأساســية للدولة العبودية (شأنها فى ذلك شأن الدولة فى المجتمعين الاستغلاليين الأخيرين : الاقطاعى والرأسمالى) . وقــد دأبت هــذه الدولة العبودية على شن حروب متصلة تستهدف الحيــازة على أعــداد كبيرة أخــرى من العبيد . ونهب الشعوب الأخرى واجبارهــا على الجزية أو تحويل أفرادهــا الى العبودية .

وعلى ذلك فان الدولة العبودية كانت لها وظيفة أخــرى هى الدفاع عن أراضيها وتوسيع رقعتهــا .

وأخذت هذه الدولة تدير شئونهــا مستعينة بجهاز خاص هو جهاز الحكومة الذى توصلت الدولة اليه فى أول الأمر من خــلال تبنى بعض المؤسسات القبليــة والعشائرية التى كفت عن مواءمة

مصالح القبيلة أو العشيرة ككل وأصبحت مجرد أداة فى أيدى حفنة قليلة من الرؤساء الذين أخذوا بالتدريج بتوارثون الحكم. أما الرجال الأحرار المسلحون الذين كانوا أساس القوة العسكرية فى المجتمع البدائى فقد أزيحوا ليحل محلهم جيش الدولة العبودية الذى عزل عن الشعب فى تعارض معه اذ لم يكن مدعوا الا الى الدفاع عن المصالح المنحطة الأنانية لملاك العبيد ، وقد اقترن بمولد هذه الدولة انبثاق المحاكم والانماط التشريعية المعبرة عن مصالح هؤلاء الملاك دون مصالح المجتمع ككل . كما أصبح الدين جزءا لا يتجزأ من جهاز انضم اليه الكهنة يمارسون السلطة من خلاله الى جانب العرفاء والحرس والكتبة والمعلمين وجامعى الضرائب .. الخ .

وبشكل متناقض مع التجمعات القبلية والعشائرية التى خلقتها وابقت عليها وشائج الدم ، راحت الدولة تقسم الرعية وفقا للتقسيمات الاقليمية .

أولى الدول العبودية فى آسيا وافريقيا

ومع الانتصار الذى احرزه أسلوب الانتاج العبودى شرعت الدول العبودية تنشأ فى مصر ما بين الألف الرابع والثانى قبل الميلاد . ومعه قامت على طول نهرى دجلة والفرات الدول السومارية وبابليون والعقاد ، والدول العبودية فى الهند والصين . وفى النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد نشأت أول دولة من هذا النوع فى أشور . وفى نفس الوقت نشأت الدولة الحديثة القوية فى الهضبة الوسطى من آسيا الصغرى كما نشأت المملكة المينوية العربية القديمة فى المنطقة اليمنية الحالية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وفى زمن ما من ازمنة القرن الثانى عشر قبل الميلاد

نشأت مملكة الكوش فى جنوبى مصر . وفى الألف الأول قبل الميلاد تشكلت مملكة الأورارتو فيما وراء القوقاز ، بينما قامت فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد دول خوارزم وباكتريا وسوجدياتا ، ومن بعدها المملكة الكوشانية فى آسيا الوسطى . وفى القرن الثامن قبل الميلاد نشأت المملكة الميدية فى غربى ايران والتى خلفتها الدولة الفارسية فى القرن السادس قبل الميلاد . أما اليونان فقد ظهر النظام العبودى فيها فيما بين القرنين الثامن والسادس بينما كان هذا القرن الأخير موعد ظهوره فى روما . وقبيل الغزو الأسبانى بقرن او قرنين أخذت الدول العبودية تنشأ فى أمريكا (الوسطى والجنوبية) فيما عدا دول مدن المايا التى تعود الى فترات أقدم من ذلك بكثير .

التحالفات القبلية

وتعتبر التحالفات القبيلية أقدم اشكال الدولة وأكثرها بدائية ، وهى مرحلة مرت بها معظم الدول العبودية المعروفة لنا الى الآن .

وفى العادة كانت القبيلة الأكثر قوة هى التى تشكل نواة هذا التحالف . كما كان العرش مزية خاصة للعشيرة التى ينتمى اليها رئيس هذه القبيلة الى ان اكتسبت سلطة الملك طابعها الوراثى . وفى نفس الوقت كان كبار الكهنة يختارون من صفوف عشيرة الحاكم . أضف الى ذلك أن هذه التحالفات القبلية كانت تتم باتفاق يتعارف عليه الرؤساء أو باغتصاب أضعف القبائل عن طريق الحروب المتصلة التى كانت الدولة تشنها لتوسيع رقعتها .

الاستبداد العبودى :

كانت التحالفات القبيلية والطائفية هى أكثر اشكال الدولة بدائية . لكن هـذه التحالفات هى التى تحولت بنمو سلطة الرئيس وتدعم جهاز الدولة الى تلك الدول العبودية المستبدة التى اصبحت النمط الأساسى لتشكيلات الدولة عبر التاريخ ، والتى انتشرت على نطاق واسع فى آسـيا وافريقيا وامريكا .

وثمة عدد من الوثائق التاريخية حفظت لنا الى هذا اليوم قسمات جوهرية اتسمت بها الدولة الاستبدادية القديمة . ففى تشريعات حمورابى ، وهى مجموعة من القوانين صاغها واحد من أعظم ملوك بابيلون معلومات طريفة وهامة تعكس الحياة الاجتماعية فى المجتمع العبودى .

اما بابيلون فقد كانت على عهد حمورابى دولة عبودية اسبتدادية بمعنى الكلمة لهـا حكومتها المركزية المتمتعة بكل سلطات السيادة (التشريعية والتنفيذية والقانونية) المركزة جميعهـا فى يد الملك . ولقـد كان التطرف فى تعظيم وتمجيـد السلطة وشص الملك الذى كثيرا ما تحول الى اله معبود من السـمات الجوهرية المميزة للأيديولوجية السائدة فى الممالك القديمـة . كما كانت سلطة الملك هـذه تستند الى جهاز بيروقراطى معقد يقسم الادارات المركزية والمحلية على مختلف الموظفين والولاة .

علاقات الانتاج فى المجتمع العبودى :

وتنكشف لنـا فى قوانين حمورابى معلومات غزيرة عن طبيعة العلاقات الانتاجية لا فى مملكة بابيلون وحدها بل كذلك فى كافة المجتمعات العبودية .

فالطبقة الحاكمة فى بابيلون كانت تستوعب فى صفوفها متوسطى ملاك العبيد وصغارهم ، وهى الطبقات التى تدافع قوانين حمورابى عن مصالحها . وتقدم لنـــا هذه القوانين صورة حيه تعكس الطبيعة الطبقية للدولة العبودية ونظامها التشريعى .

ولقـــد كانت الملكية العبودية لوسائل الانتاج وللمنتجين انفسهم (العبيد) هى الأساس الذى انبنت عليه العلاقات الانتاجيـــة فى النظام العبودى .

ولكن الدور الأساسى الذى كانت تقوم به هذه الملكية فى المجتمع العبودى لم يكن يستبعد الملكية الصغيرة التى كان الفلاحون الأحرار والحرفيون يتمتعون بهـــا . هذه الحقيقة تصـــدق بالنسبة ببابيلون أيضا على الرغم من ان احرارها كانوا يفقدون استقلالهم باستمرار ويتحولون الى منزلة العبيـــد . ذلك أنهم كانوا فى سبيل الحصول على ما يقيم أودهم ، يلجأون الى الاستدانة من اغنياء ملاك العبيد . وهنـــا كان الرجل الحر الذى يعجز عن سداد ديونه يخسر كل ما يملكه ليصبح بنفسه ضامنا أو كفيـــلا .

المشاعية فى المجتمع العبودى :

وكيف أمكن للمجتمع البابيلونى أن يتشكل فى نفس الوقت من العبيد ومن الأحرار ؟ .. السبب فى هذه الظاهرة هو أن هؤلاء الأحرار كانوا فى الأســـــاس من الفـــلاحين الأحـــرار المتبقين من المجتمعات البدائية .

فان الشرائح الكبيرة من الأراضى الخصبة التى ترويهـــا فيضانات الأنهار كانت قد ولدت منذ مدة طويلة سبقت ظهور الدول ، فكرة

الزراعية المبنية على نظم الرى المعقدة والمنظمة تنظيما جيدا . ولقد كان من الممكن أن يؤدى انشاء المزارع الشاسعة المرتكزة على عمل العبيد ، وتقسيم الأراضي المروية ، ونظم الرى بين الملاك ، الى المخاطرة بالانهيار التدريجي للزراعة والرى معا ، لأن العبيد كانوا يفتقدون أى اهتمام بنتائج عملهم .

ولذلك فان الدولة قد اكتشفت انه من الأجدى لها الاحتفاظ بالملكية المشاعية ، الا أن الزمن الذى كان اعضاء المجتمع المشاعى لا يعرفون الاستغلال فيه كان قد ولى ، لأن الملكية المشاعية كانت قد أصبحت فى الظروف التاريخية المتغيرة موضع الاستغلال من جانب الدولة العبودية . وبات على الفلاحين العاملين فى هذه المزارع تسليم القسط الأكبر من محاصيلهم الى الملك والكهنة والجيش ، وفى نفس الوقت كان العرفاء قد أحكموا رقابتهم الشديدة على نظم الرى ملتزمين بدفع الضرائب والأموال المقررة بانتظام .

ولقد كانت الصورة التى قامت فى الدول الاستبدادية القديمة التى ظهرت فى مصر والصين والهند وايران ومملكة اينكاس الخ .. مشابهة للصورة التى قدمناها مع بعض الفروق هنا وهناك .

ولكن الدولة العبودية هى نفسها التى انتهت بالقضاء على الزراعة المشاعية رغم الاهتمام الذى ابدته للحفاظ عليها . فان الملك نفسه كان يمتلك مساحات كبيرة من الأرض اخذ يوسعها على حساب المشاعيات الفلاحية . كما لجأ فى سبيل تدعيم الأسس الاجتماعية لسلطته الى منح مساحات كبيرة من ارضه أو من الأراضى المشاعية الى ملاك العبيد من حاشيته ، والى الموظفين العلمانيين والعسكريين ورجال الدين . وقد ادى هذا كله الى جانب اغتناء قسم من المجتمع وافتقار القسم الآخر دورا هاما فى تحلل وانقراض المشاعية .

فى هذه الدول حققت القوى المنتجة تطورا بعيد المدى. ففى مصر على سبيل المثال اخذت الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد تقضى بشكل تدريجى على استخدام الأدوات المصنوعة من الحجر. وفى أيام حكم الأسر الوسطى شهدت مصر نشوء الحرف والتجارة. وعلى العموم فان الحرف كانت مهنة الأحرار لكن ما أن حلت الحقبة التى تلت (أى فى عصر الأسرة الحديثة) حتى أمكن رؤية هؤلاء الأحرار وهم يعملون الى جانب اعداد متزايدة من العبيد. وفى هذا العهد تطور التخصص الحرفى على نطاق واسع. وثمة انماط مختلفة من العمل وجدت فى مصر حينذاك تدل عليها نقوش الحوائط فى احدى المقابر القديمة حيث نشاهد الغزالين والنساجين والدباغين والنجارين وطارقى النحاس وعمال الصهر والمسابك. وفى هذا العهد استبدل بالمغزل الأفقى الذى كان يستلزم عمل شخصين أو ثلاثة، مغزل عمودى لا يستلزم الا عمل شخص واحد. كما ظهرت مخترعات جديدة مثل الكير الذى يدفع بقدم لنفخ النار فى الكور، ومثل مقابض المحاريث التى ادخلت عليها بعض التحسينات، وصب الأشكال المجوفة من البرونز، وانتاج الزجاج الذى حقق تطورا بعيد المدى.

ومن الممكن ملاحظة صورة مشابهة لذلك اتخذها تطور الحرف فى بعض البلدان الآسيوية والأفريقية، فان قانون حمورابى يدلنا فى هذا الصدد على تخصصات عديدة فى مجال الحرف كما أن كتاب ميليندا بانجها يقدم لنا صورة عن مختلف اهتمامات الحرفيين فى باكتيريا مثل الفخار ودباغة الجلود وصناعة الملابس والأمشاط والغزل والسلال والأقواس وتشغيل المعادن .. الخ.

ثم بدات المــاكينات المعقدة تظهر الى جانب الأدوات والأجهزة البدائيــة . واتاحت المخترعات الميكانيكية رفع الكتل الضخمة من الحجارة لبناء اهرامات مصر العظيمة الا ان اشق واصعب الأعمال كانت توكل الى العبيد .

وادخلت التحسينات على نظم الرى التى ظهرت اول ما ظهرت فى النظام المشاعى البدائى ، وذلك بفضل الأجهزة الجديدة والمعرفة التكنيكية النامية ، وقد اتاح استخدام الأدوات الحديدية مثلا تشييد القنوات فى التربة الصخرية فى مملكة أوراترو .

وفى الوسع اعتبار نظم الرى على النيل فى اسوان واحــدا من المنجزات العظيمة فى الأزمنة القديمة ، ولكننا لا يمكن أن نضاهيها بنظام الرى الذى يبنيه الشعب المصرى حاليا مستفيدا من المساعدة الأخوية التى يبزلهــا الاتحاد السوفيتى ، فان النظام الجديد يقــدم للعــالم سدا طوله خمس كيلو مترات ومحطة كهربائية طاقتهــا ٢٫١٠٠٫٠٠٠ كيلو وات ومليونين من الفدادين ترويها الميــاه .

وادى تطور التجــارة البحرية الى تحسن بناء السفن ، كمــا حقق التكنيك العسكرى تطورا كبيرا .

تطور العلاقات السلعية النقدية :

وقد استخدم الناس حتى فى الأيام التى سادها التبادل البــدائى معادلا سلعيا عاما كان عبــارة عن سلعة تقوم بدور الوسيط بين السلع المتبادلة . وكانوا يستخدمون أول الأمر لهذه الأغراض بعض السلع ذات الأهميــة القصوى مثــل الأغنــام والفراء والجلود والمعــاج .. الخ .

أما فى المجتمع العبودى فقد أخذت المعادن تقوم على نحو تدريجى بهذا الدور ، فأصبح الحديد والنحاس فى أول الأمر يقومان بدور المعادن ، ثم الذهب ، والفضة بشكل خاص . وحينذاك ظهرت النقود كمعادل عام بين كل السلع الأخرى لتصبح بعد حين سلعة السلع .

ومع نمو التجارة تشكلت طبقة لا تقوم بأى دور فى الانتاج ، متفرغة تفرغا كاملا لعمليات التبادل ونعنى بهـا طبقة التجار ، الذين أصبحت التجارة بالنسبة لهم وسيلة لانتزاع جزء من المنتجات التى يخلقهـا عمل الشعب العامل .

ولقد كان ذلك هو التقسيم الاجتماعى الثالث للعمل ، فان الاقتصاد الطبيعى الذى كان الشكل المسيطر الى ذلك الوقت قد أخلى مكانه للانتاج السلعى أى الى الانتاج من أجل التبادل .

نشوء المدن :

ان الانتاج الحرفى انتاج سلعى بطبيعته ، فان الحرفى لا ينتج القدر الأعظم من منتجاته بهدف الاستهلاك الشخصى ، بل للتبادل او البيع . ومن ثم تنشأ ضرورة توثيق الصلات بين الحرفى والتاجر الذى يتدخل وسيطا بين المنتج والمستهلك الأمر الذى أدى الى ظهور مواطن يعيش فيها التجار والحرفيون ، شكلت المدن التى تطورت الى مراكز للحرف والتجارة .

ولقد انبثقت المدن فى الكثير من الأحوال حول الأماكن التى اتخذتها القبائل مراكز دائمة لخيماتها ، وحول المراكز الدينية ، وبالقرب من التحصينات والينابيع ، أو على مفترق الطرق التجارية .

وعلى سبيل المثال فان مدينة مكة نشأت فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد حول ينبوع للاستشفاء كان الناس يتجمعون حوله لعبادة الحجر الأسود المقدس .

نمو الروابط التجارية :

وفى تلك الأزمنة القديمة التى كان الانسان لا يعرف فيها فكرة البخار والكهرباء كمصدر للطاقة ، بل حيثما كانت القوة الحيوانية لا تستخدم الا فى نطاق ضيق ، كانت ارخص وسائل النقل هى الروامس والقوارب والسفن . ولذلك فقد تأسست العلاقات التجارية أول نشوئها فى هذه الأزمنة أساسا بين البلدان والمدن الواقعة على سواحل البحار وشطئان الأنهار ، فاكتسبت التجارة مع نمو هذه العلاقات أهمية متزايدة لتصبح المصدر الأساسى للثروة فى بعض البلدان والمدن . ومن ذلك أن الفينيقيين القدامى الذين اقاموا مدنهم على طول الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى الألف الثالث قبل الميلاد قد اشتهروا بقدراتهم التجارية الفائقة وبالمكر والبخل الذى اتسم به تجارهم . ولقد أخذت السفن الشراعية الفينيقية حينذاك تجوب هذا البحر ، وقد امتلأت عنابرها بمختلف السلع التى كان العبيد من اهم موادها التجارية .

وفى نفس الوقت تأسست الطرق التجارية والبرية لتصل الى البلدان النائية فى افريقيا وآسيا ، واخذت القوافل تقطع آلاف الكيلو مترات للوصول الى مقاصدها .

وقد افضى تطور التجارة والعلاقات السلعية والنقدية الى تركيز الثروة فى ايدى اقلية صغيرة والى افقار الغالبية العظمى . وراحت الطبقة الاكثر غنى تنتهز فقر الفلاحين والحرفيين ، وتتطوع باقراضهم

النقود ووســـائل الأود الأخرى (الأغذية والادوات ... الخ) . بفوائد عالية . وقد كان هـــذا الفـــلاح او الحرفى يرهق فى غالب الأحوال لأسباب كثيرة منهـــا كبر العائلة التى يعولهـــا ، والكوارث الطبيعيـــة ، والأمراض ، والغزو الأجنبى ، فلا يعود قادرا على سداد ديونه ، فيتحول هو او أطفاله فى نهاية الأمر الى عبيـــد ، بمعنى انتقالهم من مجموعة اجتماعية (هى مجموعة الأحرار) الى مجموعة اخرى (هى مجموعة العبيد) . ونصل من ذلك الى ان تطور العلاقات السلعية والنقدية قد وسع من هوة التمايز فى المجتمع وفى الملكية .

الصراع الطبقى ومغزاه :

ويحفل المجتمع العبودى طوال تاريخـــه بالصراع الطبقى ، وقد كان فى اساسه صراعا بين الملاك وعبيدهم ، كما كان يثور بشكل حتمى بسبب التناقضات القائمة بين الأوضاع الاقتصادية التى كانت عليها الطبقات المختلفة ، والمصالح المتنازعة النابعة من اختـــلاف المراكز التى تشغلها كل طبقة فى نظام الانتـــاج الاجتماعى . فالعبيد وقد حرموا من الملكية واخضعوا لأكثر واقسى الأنواع وحشية فى فى تاريخ الاستغلال كانوا مهتمين على نحو موضوعى بالقضاء على اسلوب الانتاج والنظام السياسى اللذين هبط بهم الى هـــذه الحالة المريعة ، والتى كان مستغلوهم يحرصون عليهـــا غاية الحرص . ولهذا فان العبيد كانوا يشكلون طبقة ثورية على الرغم من الطابع المحـــدد لهذه الثورية .

وقد عكست الهبات المسلحة التى قاموا بهـــا فى الدول الآسيوية والأفريقية القديمة صورة حية عن هذا الصراع الطبقى . ففى نهاية عهـــد الأسر المصرية الوسطى انفجرت هبة مسلحة عارمة

من قطاعات الشعب الدنيا ، وانضم فيها الى العبيد جماهير عريقة من الفلاحين والحرفيين الذين آلوا الى الفقر الشديد .

كما أن الصين القديمة كانت على مدى قرون طويلة من تاريخها مسرحا لهبات العبيد المتصلة ، كبتتها الطبقات الحاكمة دون رحمة وكانت الهزيمة هى النهاية الحتمية لكل هذه الهبات لأن القائمين بهما كانوا يفتقدون التنظيم والنظام اللازمين ولأن جهودهم كانت فى العادة مبعثرة ومفككة بحيث لم يستطيعوا مواجهة قوات الطبقات الحاكمة المسلحة احسن تسليح ، فضلا عن أن الشروط الضرورية للقضاء على استغلال الانسان لأخيه الانسان لم يكن قد تهيأت بعد فى ذلك الحين .

وعلى الرغم من ذلك فان الكبت الذى عانته هبات الفلاحين الأحرار والحرفيين والعبيد لا ينفى ما لهذه الهبات من اهمية تقدمية عظيمة ، ذلك أنها دمرت العلاقات الانتاجية العقيمة وأحلت بدلا منهما علاقات اكثر تقدما .

ايديولوجية وثقافة الدول العبودية :

ولقد كانت هى الخطوات الأولى فى نضال الجماهير من اجل التحرر ، كما أنهم قد صهروا ودعموا من خلالها تقاليد هذا النضال التاريخى ، بل انهم تمكنوا عن طريقها من تحقيق بعض الحاجات المؤقتة حسنت فى كثير من الأحوال ظروف الجماهير العاملة ، ودفعت الى تطور القوى الانتاجية .

ولقد كانت بعض القسمات والسمات الخاصة التى منها الاحساس بالواجب والجماعية واحترام العمل اليدوى (البدنى)

من الخواص الكامنة فى أيديولوجية الانسان فى المجتمع المشاعى البدائى قبيل نشوء العبودية . ولقد كانت هذه الأفكار شأن غيرها من ظواهر ذلك العصر وثيقة الصلة بالدين ، كما أن الآلهة العديدة المعبودة فى ذلك العصر كانت تتمتع بنفس القدر من المساواة السائدة بين اعضاء المجتمع أنفسهم والذين كانوا يجدون بدورهم نفس المعاملة من آلهة مجتمعهم (قبيلتهم أو عشيرتهم) .

الا أن انقسام المجتمع الى طبقات متنازعة قد انتهى الى اعادة تقسيم الثقافة والأيديولوجية الواحدة الى ثقافات وايديولوجيات للاستغلاليين وأخرى للمستغلين ، علاوة على أن الاستقرار التدريجى لهذه الأفكار المتناقضة فى وعى الانسان قد شكل القسمة الجوهرية للأيديولوجية الانسانية فى الدول العبودية القديمة كما أن هذا التناقض قد وجد تعبيره فى الفن والأخلاق والفلسفة ، واصبح واضحا بشكل أكثر حيوية فى الدين بسبب الطبيعة الشاملة لهذه الناحية من البناء الفوقى .

وبانعزال الطبقة الحاكمة عن الشعب عامة وتدعمها اخلت الأرواح والآلهة العديدة مكانها لعدد محدود نسبيا من الآلهة كان الكهنة هم الذين يختارونها لتقوم بأعمال اللاهوت الرسمى . وكانت العبادات الرسمية تلاقى مساندة واسعة من جانب الطبقات الحاكمة . وعلى الرغم من تنوع هذه العبادات فان وظائفها الطبقية كانت واحدة وهى اخضاع الشعب العامل وتهديده بغضب الآلهة عقابا فى هذه الدنيا وفى الآخرة . وبطريقة او بأخرى كانت هذه الديانات الرسمية ترفع حكم الاستغلاليين والملوك الى اوثان معبودة .

وفى الكثير من الأحوال كانت هذه العبادات غريبة على الجماهير التى لم تكن تفهمها ، علاوة على انها كانت فى الغالب ذات اصول اجنبية . وعلى ان الأفكار الدينية لدى العبيد والأحرار والحرفيين كانت مغايرة بطريقة ما لوجهــات النظر الدينية الرسمية التى فرضها الكهنة على الشعب ، بل لقد اتخذت هذه الفروق طابعــا سافرا فى بعض الأحيان . ومن ذلك ان الملوك والنبلاء فى ارمينيــا القــديمة كانوا يعتنقون الديانات الهيلنبية ولكن ما من شىء كان فى وسعه اجبار الشعب على التخلى عن معتقداته القديمة ولا سيما فى عبادة آله الطبيعة آرا المجيد الذى مات وبعث من جديد .

ولم تكن العبادات على الرغم من كل ذلك هو المجال الأيديولوجى الوحيد الذى انعكست فيه هذه التناقضات بين الشعب والطبقات الاستغلاليــة .

فقد اخذت الطبقة الحاكمة تنكشف فى اول أمرها عن موقف من العمل البدنى هو اللامبالاة ثم الازدراء فالاحتقار اذ كانت تعتــبره حرفة غير جديرة بالنبلاء . الا ان العمل قد ظل بالنســبة لغالبية الشعب فى الدول العبودية القديمة موضع تقدير عظيم . وفى نفس الوقت كانت بعض الاجراءات التى تتم أثناء العمل مرتبطة فى غالب الاحوال بالمفاهيم الدينية المتباينة .

ثم كانت الملكية الخاصة وتراكم الثروة لدى الأفراد سببا فى أن اصبحت الأنانية واحــدة من القسمات الجوهرية المميزة للطبقــة الحاكمة التى بدأت مصالحها الشخصية تسود فوق مصالح الشعب والبــلاد . اما الشعب ، أما الكادحون فى الأرض ، والذين وحدتهم العمليات المشتركة اثناء الانتاج فقد ظلوا يضعون مصلحة المجتمع فوق افراحهم وخصوماتهم مستعدين دائمــا للتضحية بثرواتهم فى سبل المصلحة العــامة .

تراكم المعرفة : بديانات العناصر الأولى المكونة للمادية والجدلية (١) :

ولقد سبق وأن ذكرنا أن الدين كان فى الدول العبودية القديمة أعظم أشكال الوعى الانسانى شمولا . وهذه حقيقة تفسر لنا لماذا سيطرت المفاهيم المثالية فيما يتعلق بالطبيعة والمجتمع . وعلى هذا فان كل الظواهر الطبيعية والتصرفات الانسانية والأحداث الاجتماعية التى لم يكن من المتاح تفسيرها علميا فى ذلك الوقت كانت تفسر باللجوء الى القوى فوق الطبيعية ، ولم يكن من الممكن مضاعفة نمو القوى الانتاجية ، وتطور العمل الأكثر تعقيدا الا من خلال تراكم المعرفة الموضوعية . وكان ظهور فائض الانتاج هو الذى أتاح للشعب مزيدا من الوقت لمتابعة العمل الثقافى والتعرف تدريجيا على قوانين الطبيعة وبهذا أمكن اعتبار فيضانات النيل النيل السنوية حدثا منتظما . ورغم أن المصريين ظلوا يمارسون عبادة التماسيح فان هذا لم يحل بينهم وبين حسبان وقت الفيضانات ومقادير الطمى المتوقعة والمساحات التقريبية التى يتيح الفيضان ريها .

هذه الجذور الأولية للمعرفة الموضوعية عن الطبيعة أدت الى ظهور المفاهيم الفلسفية والنظريات الأولى التى اعتبرت المادة أساس كل كيان موجود على النقيض من التصورات المثالية القديمة التى اعطت المكانة الأولى للروح وللقوى فوق الطبيعية . وعلى سبيل المثال فان الأساطير المصرية القديمة تعتبر الهواء خاصية

---

(١) المادية نظام فلسفى يقوم على الاعتراف بالمادة ، وبالأساس المادي للواقع القائم باعتباره الكائن الأساسى ، بينما الوعى والروح والأفكار ثانوية ومن نتاج المادة نفسها . والفلسفة المادية ترتكز على مكتشفات العلم . أما الجدلية فهى علم دراسة التطور والحركة بينما الجدليات الماركسية هى نظرية القوانين الأكثر شمولا لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر الانسانى .

مميزة لكل ما هو دافع . كمـــا أن العـــالم كله ينبع ومقـــا لهـــذه الأساطير من اساس مادى هو المـــاء . اضف الى ذلك ان فلاسفة الهند كانوا قد بادروا منذ احقاب طويلة سبقت عصرنا لمعـــارضة الديانة الراهمية القديمة معتبرين كل الظواهر الطبيعية نتاجا لاتحاد أربعة عنـــاصر مادية هى المـــاء والتراب والنار والهواء .

العـــلم والفن :

ومع التطور الذى شهده الانتاج اصبحت النشاطات السياسية التى يبذلهـــا الانســان اكثر ثراء وتنوعا ، كما باتت طاقات العلم والمعرفة اكثر اتساعا . ولأنه كان من الضرورى حســـبان مقادير البذور التى ضمت او بذرت ، وقياس مســـاحة الحقل أو طول احدى الترع والتنبؤ بقرب الجفـــاف أو الفيضان ، وتحديد مدى مرونة أو تركيب البرونز .. الخ . فقد ظهر علم الحساب والهندسة والفلك واوليات علمى الكمياء والطبيعة . كمـــا اقترنت الرسوم البدائية التى لم تكن تحمل الا جزءا من المعنى المكتوب ، بالهيروغليفية وحروف الأبجدية التى مكنت من كتابة كل وحدات اللغة . وهـــذا يعنى امكانية قيامنا بصياغة القوانين التى سنت حينذاك للدفاع عن مصالح الطبقة الحاكمة وامكانية قيامنا بالحسبان الدقيق لمقادير السلع التى تم بيعها أو شراؤها ، او مقدار الثروة التى كان أحد الأفراد والمعابد يمتلكها وقوة الدولة المعادية .. الخ . ويوضح لنـــا كل هذا ان احتياجات الدولة العبودية قد افضت الى ظهور الكتابة الخطية .

وقد ادى ظهور اللغة المكتوبة فى الدول الآســـيوية والأفريقية القديمة الى ظهور وتطور الأدب فيها . ومن أدلة ذلك تلك الثروة الهائلة من الاعمال الادبية التى تركها لنـــا الكتاب المصريون مثـــل الترجمات الذاتية والأقوال المأثورة والأناشيد وادب الرحلات.. الخ.

وتحفل كل هـــذه الأعمال شأن كافة المظاهر الأيديولوجية الأخرى فى الثقافة القديمة بالتناقضات الطبيعية . هذه واحدة من أوراق البردى المصرية تحكى لنـــا قصة فتاة من بنات العبيد ابتلعهـــا التمساح عقابا على عدم الاخلاص لسيدتها ، وهى قصة تميط اللثام عن ايديولوجية الطبقة الحاكمة ، بل أن من الممكن للمرء أن يصادف كتابات تعكس غضب المقهورين مثل الذى نستشعره فى المقطوعة التالية المـــأخوذة من اغنية مصرية قديمة :

اهو قدر مكتوب علينـــا
شحن الشعير والخارصين
فى كل يوم
فى كل يوم
ها هى الأجران ملأى
ها هى تنفجر بالحبوب
لكننا مرغمون
مرغمون

وقد مارست المنجزات التى حققتها الشعوب الآسيوية والأفريقية القديمة فى الانتـــاج والعلوم والآداب والفنون تاثيرهـــا الكبير على التطورات الثقافية اللاحقـــة ، ولا سيما فى بلدان البحر الأبيض المتوسط . فهى على وجه التحديد التى دفعت الى التعجيل بتطور القوى الانتاجية فى المجتمعات الاغريقية والرومانية العبودية .

الدول العبودية :

فى أفريقـــيا :

وقد شهدت اقاليم واسعة من هذه القـــارة نشور وتطور دول

عبودية متباينـــة ، منهـــا التى قامت فى مصر وكوتس وقرطاجة ونوميديا . ولكن مصر وكوش كانتا اهم هـــذه الدول لأن تشكيلهما كان على العكس من الدول الأخرى مثل قرطاجة بعيـــدا عن أى نفوذ جوهرى للحضارات غير الأفريقية .

مصر القديمـــة :

وقد أدى انبثاق دولة استبدادية عبودية مصرية فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد الى بداية فترة هامة من فترات التاريخ القديم ، وتشمـــل ما يسمى بالفـــترة القـــديمـــة ، والتى اخـــذ ملاك العبيد فيهـــا بعد أن ملكو جيشا قويا يشنون حروبا متصلة لا تكف لامتلاك شبه جزيرة سيناء والنوبة الشمالية .

وفى هذا العهد أتاحت الدولة المركزية تحسين وتطوير نظـــام الرى للذى كان اساس الزراعة . وكان لصيد الأسماك والعبيـــد اهمية اقتصادية بالنسبة للشعب المصرى بالاضـــافة الى التطور الذى حدث فى ميدان تربية المـــاشية ، ولا سيما فى الدلتـــا التى كانت غنية بالمراعى .

وكانت القرية هى الوحدة الاقتصادية والاجتماعية الأساسية ، والتى كان ملاك العبيد ينزلون بهـــا ابشع أنواع الاستغـــلال . ثم نشأت فيما بعد ذلك وعلى نطاق واسع ، مزارع المعابد . وكما كان الحال فى حوضى دجلة والفرات فان كوميونة القرية أخـــذت تحلل تدريجيـــا بسبب الانقسام الطبقى الحاد وانتزاع ملاك العبيـــد والكهنة والمرابين للأراضى العـــامة ، الأمر الذى آل بالفلاحين الى فقر مدقع جعلهم لا يختلفون كثيرا عن العبيد .

وكان العبيد هم قوة العمل الأساســـية فى اراضى الملك والمعـــابد

وفى أبعديات أغنياء ملاك الأرض وكبار الموظفين ، وكان عددهم يتضاعف بشكل ثابت. كما أن الفراعنة المصريين قد شنوا لمصلحة الطبقة الحاكمة عديدا من الحروب لاغتصاب عبيد جدد بالاضـــافة الى المـــاشية وغير ذلك من الثروات .

ولم يكن الهدف الأساسى للسلطة الملكية فى مصر الا تدعيم حكم ملاك العبيد ، الأمر الذى دعا الى اقامة حكومة مركزية صارمة . وراحت الثروات الخرافية تتدفق فى الخزانة الملكية لا من غنائم الحرب وحدها بل كذلك من الضرائب الباهظة التى كانت تجبى من الشعب بواسطة جيش من موظفى الملك . ولم يكن القانون الا اداة أخرى فى يد الطبقة الحاكمة فقى المديريات كانت مراكز القضـــاء الملكى لا تشغل الا بنواب الملك وكان رئيس القضاة فى نفس الوقت كبير مستشارى فرعون ، وكان يعتبر — بصفته حاملا للتشريع «الالهى» وكان الآلاف من العبيــد والأحرار يساقون قسرا الى العمل فى بناء الأهرامات الضخمـــة التى أقيمت لتمجيـــد الفراعنة والطبقة الحاكمة عموما .

أما فى العصرين التاليين ، عصرى الاسرات الوسطى والحديثة فقد ظل التركيب الحـــكومى للدولة دون تغيير كبير من الناحيـــة العمليـــة .

دولة الكوش :

هذه الدولة بدا عصرهـــا الذهبى فى زمن قريب من القرن الثامن قبل الميلاد ، بيـــد ان تاريخ نشوء الدولة نفسها يرجع الى القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميـــلاد . ولقـــد كان الكوشيون خاضعين لمصر القديمة فترة طويلة من الزمن ، لكنهم استقلوا منذ القرن الثـــامن ، بدولتهم التى راحت بدورها تغزو مصر الى ان

إخضعها الملك الكوشى بعنخى فى سنة ٧٢٥ قبل الميلاد تقريبا . وقد اتسعت هذه الدولة حتى شملت المناطق الواسعة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط الى حدود أثيوبيا واوغندا الحاليتين ، بل كانت هذه الدولة تشكل لبعض الوقت قوة عالمية . الا أن الكوشيين كانوا فى حالة حرب متصلة ضد الأشوريين والمصريين ، وفى آخر الأمر ضد الرومان ، وكثيرا ما حققوا انتصارات هائلة منها الانتصار الذى تشير اليه السجلات التاريخية حينما هزموا الفيالق الرومانية . هذه الصراعات المتصلة مع الدول الأخرى قد ادت الى تداعى المملكة الكوشية ، ومن بعد الى انهيارها الكامل فى القرن الثالث قبل الميلاد .

وكما كان الحال بالنسبة للحضارة المصرية فان الحضارة الكوشية قد ازدهرت فى الأراضى الخصبة الممتدة على ضفاف النيل لكن الظروف الطبيعية القاسية غير الملائمة ، الى جانب الغزو المتصل من جانب القبائل الرحل قد حالت دون بناء الكوشيين لنظم الرى الضخمة مثل تلك التى اقيمت فى مصر وبابيليون وغيرهما من الدول العبودية القديمة . ثم كان للرعى وتربية الماشية أهمية اقتصادية كبرى بالنسبة لهم . وقد أدت الحفريات الى اكتشاف امثلة ممتازة من الفخار المحلى وأدوات الاستخدام اليومى المصنوعة من الخشب والذهب والنحاس والجلود والعاج مما يشير الى المستوى النسبى الراقى الذى بلغته الحرف هناك .. وما زالت الآثار القديمة الدالة على الحضارة الكوشية قائمة الى يومنا هذا ومنها اعمال النحاتين والمثالين والمعماريين والفنانين . كما كان للكوشيين طريقتهم الهيروغليفية الخاصة بالكتابة ، وان كانت بعض امارات النفوذ المصرى ملحوظة فى ثقافة هذه الدولة .

وكانت العبودية منتشرة على نطاق واسع بين الكوشيين متخذة

مصادرها كما كان الحال فى مصر من الحروب واستعباد المدنيين والتجارة فى الصيد ، كما أن علاقاتهم التجارية كانت واسعة حتى انهـا امتدت الى خارج القـارة الأفريقية نفسهـا .

الدول العبودية فى منطقة الاتحاد السوفيتى :

وقد ازدهرت الدول العبودية القديمة فى منطقة الاورارتو التى تشكل جزءا من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الحالى ، كما قامت هذه الدول فى ارمينيا وليبيريا والكلوشيز والبانيا القديمة والخوارزم وسوجديانا وباكتريا وكوشان ومملكة البوسيروس . ويتضح لنا من المعلومات الوفيرة المستقاة من الحفريات فى بلاد ما وراق القوقاز وآسـيا الوسطى والمنطقة الشـمالية من البحر الأسود ان نمو القوى الانتاجيـة وظهور ونمو فائض الانتـاج والتشكيلات الطبقية فى هذه الدول كان وثيق الصلة بصهر الحديد.

الأورارتو :

ويرجـع أقـدم ما لدينـا من المعـلومات عن تحـالف الاورارتو القبـلى الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . اذ قامت مملكة الأورارتو دولة عبودية فى حوض بحيرة قان فى الألف الأول قبل الميلاد لتمد نفوذها بعـد ذلك الى مناطق شاسعة ، عن طريق جيوشها التى كانت تصل بحملاتها العسكرية الى أماكن بعيـدة مثل حوض دجلة فى الجنوب الشرقى ، والبلاد القريبة من سواحل البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب الغربى . أما فى الشمال فقـد ضمت الأورارتو مناطق واسعة هى التى تشـكل جزءا من بلاد ما وراء القوقاز السوفيتية . وكانت المرتفعات التى تحتلها الاورارتو اقل خصوبة من سهول بابيلون ومصر . ولم تكن الزراعة ممكنة الا فى وديان الأنهار حيث اتاحت النهيرات الجبلية السريعـة والتى تميز المنطقة ، مقادير المياه اللازمة للرى . وبالتالى فقد ظلت تربيـة

المـاشية فى المكانة الأولى هنـاك لفترة طويلة . ولم يتح اقامة نظم الرى على الهضبة الصخرية وزراعة المناطق الجبلية للدولة الا بعد استحداث الأدوات الحديدية .

وعلى الرغم من أن العلاقات العبودية كانت متطورة للغـاية فى هـذه الدولة فانها كانت تنطوى على بقايا النظام المشاعى البدائى كمـا أن النظام العبودى نفسه ظل متسما بالعديد من القسمات الأبوية ، ذلك أن بعض العبيد كانوا يعتـبرون ملكا مشـاعا . كما كانت الغالبية العظمى من الشعب يتشكل من الفلاحين الأحرار الذين كانوا محاربين فى نفس الوقت . وعلى النقيض مما كان فى الدول العبودية الاستبدادية الأخرى فان الاقتصاد الملكى كان يدار على نطاق أضيق ، كمـا ان حكم الملك لم يتسم هناك بنفس الطابع الاستبدادى .

هـذه الدولة توصله الى قمة تطورها فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، وفى ثلاثينيات القرن الثامن ، فأصبحت فى ذلك العهـد القديم واحدا من اكبر المراكز لصهر الحديد ، وقام ملوكها ببنـاء المدن والقلاع ونظم الرى بالارتكاز الى العبيد والأحرار الذين شكلوا قوة العمل . وتمدنا الحفريات بعـديد من الأشـياء مثل الفخار والأسلحة والتماثيل الدالة على الشـأو الذى بلغته ثقافة شعبها . وقد استعـاروا الكتابة المسمارية من الأشوريين وكيفوهـا مع الخواص المميزة للغتلهم .

وما لبثت الحروب الوحشـية ضـد مملكة أشور ، وهجمـات الاسكيثيان من الشمال وهبات العبيد والتفكك القبلى داخل البلاد ان لعبت دورها الهام فى تداعى مملكة الأورارتو (فى القرن السابع قبل الميـلاد) ثم فى انهيارها التـام فى القرن السادس قبل الميلاد

وقد كان لهذه المملكة وحضارتها تأثير واضح فى مصائر شعوب ما وراء القوقاز ، اذ أصبحت المناطق الشاسعة التى كانت تشغلها مسرحا تاريخيا عظيما امتزجت فيه القبائل والعشائر بتشكيل مجموعات عرقية اكبر أى قوميات . ومن ذلك نشوء شعبين كبيرين فيما وراء القوقاز على ذلك العهد هما ارمينيا وجورجيا .

ارمينيا :

وفيما بعد قرون نشأت فى نفس المنطقة التى شغلتها دولة الأورارتو دولة جديدة هى الدولة الأرمينية التى اتخذت شكلها المتكامل فى القرن الثانى قبل الميلاد لتتحول الى دولة عبودية مستبدة، انغمست منذ أيامها الأولى فى حروب متصلة مع خصومها المتاخمين . وقد وصلت الى أعظم ما بلغته من القوة سياسيا واقتصاديا فى حكم ارتاشيس الأول وتيجران الثانى (القرن الثانى والأول قبل الميلاد) . وقد ارتكز انبثاق الثقافة الأرمينية القديمة على استغلال العبيد والفلاحين والحرفيين دون رحمة ، فأقيمت المدن الكبرى والقلاع التى لا تقهر والطرق والكبارى بالاضافة الى استخراج العديد من المعادن ، فتطورت تجارتها على نطاق واسع مع ايران وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وغيرها من البلاد .

وبلغت الثقافة الأرمينية شأوا بعيد المدى ، وعلى الرغم من وقوعها تحت تأثير الثقافة الهيلينية كان الملاحم الشعرية الأرمينية والمسرح والرسم والنحت قد احتفظت بقسماتها التقليدية . ثم ما لبث الرومان ان اخضعوا هذه الدولة فى عام ٦٩ قبل الميلاد وان كان حكمهم قد ظل شكليا الى حد كبير مما آل الى الزوال السريع .

ايبيريا والكلوشيز : هاتان الدولتان أسسهما فيما وراء القوقاز آباء الجورجيين الحاليين . وقد شغلت مملكة الكلوشيز الساحل

الشرقى من البحر الأسود بينما امتدت ايبيريا على الجزء الجبلى الأوسط فيما وراء القوقاز . وكانتا دولتين عبوديتين وان اتسمتا ببقايا قوية من البلاقات القبليـــة . ثم ما لبث أن غزوهمـــا فى فى عام ٦٥ قبـــل الميـــلاد ، الا أن اتســـــاع حـــركة المقـــاومة الايبيرية حـــال دون تمكيين الغزاة من تحطيـــم وحـــدة البـــلاد ، وان كانوا قـــد اجـــبروا ملوك ايبيريا على اعتبـــار انفســـهم حلفـــاء للأمبراطورية الرومانية . أما الكلوشيز والمناطق المتاخمة لهـــا .فقد انقسمت الى عدد من الامارات والدويلات الصغـــيرة الموالية لهـــذه الامبراطورية .

وتسلط المعلومات التى استقيناها من الحفريات ومن غيرهـــا أضواءها على نماذج رائعة تدلنا على المستوى الرفيع الذى بلغته الثقافة الجورجية القـــديمة ، ومن ذلك أن ميتسخيت عاصـــمة الكلوشيز كانت تحفل بالعمارات المشيدة من قطع ضخمة من الحجر المنحوت ، كما أن صناعاتها الحرفية كانت متنوعة ومتطورة الى حد كبير ، وكان التخصص فى انتـــاج الأسلحة وصهر المعـــادن وصناعة الفخار والبناء والحلى أهم هذه الحرف وأكثرها انتشارا .

البانيا القديمة (١) : هـــذه الدولة ظهرت فى القطاع الشمالى من أذربيجان (وهى احدى الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) فى القرن الرابع قبل الميلاد مقسمة كما كان الحال فى دول ما وراء القوقاز ببقايا قوية من المشاعية البدائية .

وكانت تربية المـــاشية والزراعة أساس الاتجاهات الاقتصادية التى سادت هذه الدولة ، وان حققت درجة من التقدم فى صهر

---

(١) هذه الدولة القديمة لا يجب الخلط بينهـــا وبين البانيا المعاصرة فى شـــبه جزيرة البلقان ، وليس تطابق الاسمين الا تطابقا عرضيا .

الحديد ، بل انها كانت واحدا من أهم مراكز انتاج الحديد والنحاس والبرونز التى استخدمها الحرفيون فى صناعة الأسلحة والحلى والتماثيل الصغيرة والزخرفة .

كما كانت للألبانيين لغتهم الخاصة مما ييسر تطور الأدب على اساس من اللغة المنطوقة لكنهم شغلوا بالحروب المريرة التى خاضوها ضد الغزاة الرومان الذين ما لبثوا أن حولوا البانيا الى واحدة من اقاليمهم يعاملونها معاملة « الحليف » ، الا ان التبعية كانت شكلية شأن تبعية ايبيريا مما اتاح لها المحافظة على استقلالها لقرنين كاملين من الزمان لتقع فى القرن الثالث قبل الميلاد فى قبضة الامبراطورية الفارسية .

الدول العبودية فى شمال البحر الأسود :

كانت القبائل الرحل والمستقرة تعيش فى السهول الواقعة شمال البحر الأسود . ولكن مع انقراض العلاقات العشائرية القديمة فى هذه السهول (فيما بين القرنين السابع والأول قبل الميلاد) نشأت التحالفات القبلية فى هذه المناطق لتنشأ معها أسس التطور الى دولة ، وفى نفس الوقت كانت المدن الأغريقية تنمو على طول سواحل البحر الأسود مكونة جمهوريات عبودية مستقلة مثل اوليفيا وتيراس وخير سونيز .. الخ . وفى القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت مملكة البوسبوردس متخذة من بانتيكاياوم عاصمة لها . وقد لعبت القبائل المحلية والمستوطنون الاغريق دورا هاما فى تاريخ هذه الدولة .

وما زالت المنطقة التى شغلتها هذه المملكة مشهورة بخصوبتها الفائقة ، هذه الميزة التى أدت الى تطورات مشهودة فى الزراعة وفى انتاج مقادير كبيرة من الحبوب للسوق ، فقام رخاء الدولة

على ما كان يعتبر فى تلك الآونة تجارة واسعة الحبوب . فان اثينا وحدها كانت تستورد منها فى القرن الرابع قبل الميلاد ١٥ الف طنا فى كل سنة كما كانت المملكة تعنى بتصدير الأسماك والجلود والعبيد لتستورد بدلا منها حاجياتها من اليونان القديمة و آسيا الصغرى وجزر ببحر ايجة .

ولقد كان النظام ملكيا تتركز سلطاته العليا فى أيدى الملك مع الاستغلال البشع للعبيد والفلاحين الاتباع . مما رفع البلاد فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد الى قمة الازدهار الاقتصادى ، لكنها سرعان ما اهتزت تحت وطأة ازمة عنيفة حلت بهسا فى القرن الثانى قبل الميلاد . فقد تهددتها اخطار من الخارج نجمت عن دولة سكيثيا التى قامت فى القرم ، واخطار داخلية نجمت عن النشاط المتزايد الذى قام به العبيد والضامنون لينتهى الى هبة عارمه من الكتل بقيادة العبد سوماكوس ، لم تتمكن الطبقة الحاكمة من كبتها ومن معاملة المشتركين فيها بلا رحمة الا بمساعدة التدخل الأجنبى . ثم أصبحت المملكة التى اضعفتها التفككات الداخلية فريسة للبونتوس فى أول الأمر ثم للامبراطورية الرومانية فى نهاية الأمر ثم اصابها الغزو البربرى بالضربة القاضية التى افضت بهسا الى الهلاك فى القرن الرابع قبل الميلاد .

الدول العبودية فى آسيا الوسطى وكازاخستان :

فى النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد عاش فى المناطق التى تشغلها الآن جمهوريات وسط آسيا السوفيتية والجزء الجنوبى من كازاخستان عديد من قبائل الرعاة والزراع ، وكانت الزراعة واسعة الانتشار فى سهول سيراداريا وأموداريا وزير افشان وبحر آرال . فمنذ ٢٥٠٠ سنة مضت كانت القنوات تتخلل

هـــذه المناطق على طول ٢٠٠ كيلو مترا ، ثم جاء القرنان السابع والسادس قبل الميلاد ليشهدا قيـــام أولى الدول العبودية باكتيريا وسوجديانا وخوارزم في هـــذه المناطق ، الا أن قرونا عديدة مرت وهـــذه الدول منهمكة في حروب متصـــلة مع الغزاة الأجانب من الاجانب من الفرس والمقدونين والرومان .

وفي أواخر الألف الأول قبل الميـــلاد قامت مملكة الكوشـــان في آســـيا الوسطى لتتطور بسرعة الى دولة قوية امتـــدت أقاليمها الى شمال الهنـــد وأفغانستان .

وقـــد حققت شعوب آسيا الوسطى تطورا ماديا عظيما وثقافة روحيـــة رفيعـــة تشير اليهما تلك الرسومات والتماثيل والزخارف التي استخرجها علماء الحفريات من باطن الأرض .

بل لقـــد ظل الشعر الشعبي الذي راج في هـــذه المنطقة مصدر الهـــام لشعراء مشهورين على نطاق العالم مثل الفردوسي ونافوى والســـعدى .

٢ ـ النظـــام العبودى في اليونان القديمة :

المدن الافريقيـــة :

كانت القسمات الخاصـــة المميزة لملكيـــة العبيـــد في اليونان القديمـــة متصلة بالدول التي عبرت كل منهـــا عن مدينة . وكان الاغريق يعنون بالمدينـــة الكوميونية ، ولكنها لم تكن مجتمعا من الشعب العـــامل كما كان الحال في الشرق بل من ملاك العبيـــد هـــذه الأقليـــة الصغيرة التي حظيت بمزايا المواطنين بينمـــا حرم العبيـــد واقسام معينـــة من الأحـــرار الذين كانوا أساســـا من مهاجرى المناطق والمدن المتاخمة من أي حق .

وكانت « البوليس » عبارة عن مدينـة تحيطها الجدران الكثيفة وتضم من داخلها سكان الوديان والجزر المتاخمة .

وكان من القسمات المميزة للنظـام العبودى فى اليونان القديمة الغـاء الاستعباد بسبب الديون مما كان انتصارا مرموقا حققته الجماهير الاغريقيـة .

وقـد عرفت اليونان القـديمة نوعين من دول المدن . كانت السلطة فى اولاهما لملاك العبيد المتمتعين بالديمقراطية العبودية ، أما فى الثانيـة فقـد تركزت السلطة فى أيدى مزينـة بميزة هى الارستقراطيـة ، وعلى اساس اعتبـار ملكيـة الأرض شرطا للتمتع بالحقوق المدنيـة الكاملة . وتقدم لنـا اثينا القديمة نموذجا تقليديا للنوع الأول من المدن بينما تقـدم لنا أسبرطة نموذج النوع الثـانى .

وقـد حققت الدولة الاغريقيـة القـديمة تطورها السريع من خلال الاستغلال الذى لا يرحم للعبيـد الذين كانت اعدادهم تتزايد عن طريق الحروب والتجارة فى العبيـد ، بل ان استغلال العبيـد كان هو العـامل الأساسى فى تطور الحـرف والملاحة والتجـارة والفنون .

كما قام أثينا عـدد كبير من الورش لا تستخدم الا عمـل العبيـد . وعلى العموم كانت هـذه الورش صغيرة لكن عـدد العبيـد الذين كانوا يعملون فى الورشـة الواحـدة كانوا يزيدون عن المـائة . وقـد أدى هـذا النوع من العمل التعاونى البسيط الى رفع انتاجيـة العمـل .

وعلى الرغم من أن الاقتصاد العبودى فى المدينـة الاغريقيـة هو الذى فتح فى أول أمره ، افاقـا عريضـة أمام تطور القوى

المنتجة الا أنه ما لبث أن تحول الى عقبة ضد اي تطور جديد لأن العبيد قد كفوا عن الاهتمام بزيادة انتاجية عملهم .

وفى مجرى هذا التطور للعلاقات العبودية أولا فى اليونان ثم فى روما أخذت الهوة بين العمل العقلي والعمل اليدوى ، والتى كانت قد ظهرت فى الدول الاستبدادية العبودية فى آسيا وافريقيا تتسع .

ويجوز لنا أن نفسر هذه الظاهرة بموقف الازدراء من العمل البدنى بكل اشكاله والذى انتشر بين الكتل العريضة فى اليونان ثم بين السكان الأحرار فى الامبراطورية الرومانية .

وقد أدى النمو الذى لم يسبق له مقبل فى جيش العبيد الى الافقار التدريجي لصغار الفلاحين الأحرار والحرفيين من ناحية ، والى حشد عقولهم من ناحية أخرى باحتقار العمل البدنى الذى اعتبروه حرفة غير جديرة بالانسان الحر .

وقد تعرضت دول المدن الاغريقية فى كثير من الأحوال الى الغزو الأجنبى ، ففى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد كانت الهجمات الفارسية العنيفة خطراً خاصا تعرضت له اليونان لكن الامبراطورية الفارسية ، بكل قوتها وعظمتها وامتدادها من الهند الى مصر لم ينقذها من الهزيمة لأن الاغريق فى هذه الحرب كانوا يناضلون دفاعا عن حريتهم واستقلالهم الأمر الذى شكل السبب الرئيسى لانتصارهم .

وقد اكتسبت الدولة العبودية الاغريقية من هذه الحرب عددا كبيرا من الأسرى حولتهم الى عبيد مما ساعد فى تحقيق مزيد من تنمية العلاقات العبودية فى طول اليونان وعرضها ، ولا سيما فى أثينا حيث كان فيض العبيد كبيرا الى درجة غير مألوفة .

ولقد تأثر مصير اليونان الى حد كبير بانهيار قوة فارس البحرية فى البحر الأبيض المتوسط وتدعم التجارة فى هذه المنطقة الواسعة ، كما أن هذه الانتصارات الاغريقية كانت واحدا من العوامل التى أسهمت فى التطورات الجديدة التى طرأت على المدينة والاغريقية .. فان القسمات التى فضت الى أزمة نظام المدينة قد بدأت تظهر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

وكان من الأسباب الرئيسية لهذه الأزمة انتشار العلاقات الاقتصادية التى سادت دولة المدينة الى ما وراء حدودها السياسية . كما كان من الأسباب السياسية الرئيسية فى أضعافه المدن الاغريقية تلك الحروب البيلوبونية المرهقة التى امتدت من ٤٣١ الى ٤٠٤ قبل الميلاد ، بين الاتحاد البيلوبونى بقيادة اسبرطة ، والاتحاد البحرى بقيادة أثينا .

قيام الدولة العبودية المركزية :

وفى نفس الوقت الذى كان الضعف يعترى فيه نظام المدن كانت دولة عبودية أخرى ، هى الدولة المقدونية ، تتطور فى القطاع الشمالى من شبه جزيرة البلقان . وقد تمكن ملكها فيليب الثانى عن طريق المزج الناجح بين المناورات السياسية المعقدة والأعمال العسكرية الذكية اخضاع دول المدن كلها مستغلا تمزقها بسبب منازعاتها الداخلية وبذلك توحدت اليونان فى دولة واحدة ، الا ان الطابع المصطنع لهذه الوحدة والمرابين الأجانب تمكنا من اثارة المشاعر المعادية لمقدونيا فى صفوف السكان .

فدبرت الارستقراطية المقدونية امرها واعلنت الحرب على فارس سعيا الى صرف سخط الشعب وتوجيهه فى قنوات أخرى كافلين

لأنفســهم فى نفس الوقت ثروات الشرق الخرافيــة ومناطقــه الشاسعة واقتناص مزيد من العبيــد .

وقــاد الحملة ضــد الامبراطورية الفارسية القوية الاسكندر العظيم ، أحــد المشاهير السياسيين والقادة العسكرين .

فبقيــادته وضعت الجيوش الاغريقيــة المقدوينة أيديها فى فترة قصيرة نسبيا (من ٣٣٤ الى ٣٢٧ ق.م) على المناطق الشاسعة المتــدة من مصر الى الهنــد ، متخــذة من بابيلون عاصمة لهــذه الامبراطورية المترامية الأطراف .

وكان من نتــائج التبادل الثقافى بين العــالم الهيلينى وبلدان شمال أفريقيــا وآسيا أن تمكن الاغريق والشعوب الشرقية من الاستيعاب المتبادل لتراثهما الثقافى . ولا شك فى أن هــذا الالتحام الفريد بين الثقــافات الاغريقية والشرقيــة كان قسمة أساسية للهيدلينيــة ، هــــذا التعريف الذى أطلق على عصر فتوحــات الاسكندر والفترة التى أعقبتــه فى تطور الدول الهيلينيــة الى اليوم الذى أجبرت فيــه على الخضوع للرومان .

وقــد يبدو لنا ان امبراطورته واسعة مثل هــذه كان فى امكانها تشــكيل دولة مستقرة ، لكن العكس هو الذى حدث فان التمزق الداخلى بين العبيــد وملاك العبيد وما بين الفاتحين والمقهورين ، ثم فيما بين الجماعات المختلفة من ملاك العبيد قــد ادى بالاضافة الى افتقــاد الوحدة الاقتصادية الى نسف امبراطورية الاسكندر .

وفى صيف عام ٣٢٣ مات الفــاتح العظيم دون ان يعين خلفــا له فتــداعت الامبراطورية الى عــدد من الدويلات المستقلة الكبيرة والصغيرة التى احتــدمت خلافاتهــا .

٣ ــ القسمات الأساسية للنظـــام العبودى

فى روما القديمة :

كان العبيـــد فى الدولة الرومانيـــة القديمة المنتجين الأساسيين لكل الطيبـــات المـــادية ، ومنها وصلت حـــدة الصراع الطبقى بين العبيـــد وملاكهم الى أقصى أشكالهـــا .

ويقـــدم لنـــا تاريخ روما معلومات غزيرة تتيح دراسة نموذجية للتطور الاقتصـــادى والاجتمـــاعى والسياسى فى مجتمع عبودى .

تشكيل المجتمع العبودى والدولة العبودية :

ويرجع الســـبب فى التطور السريع الذى شـــهدته المـــلاقات العبودية فى روما الى التأثير العميق الذى مارسته مجتمعات أخرى أكثر تطورا على المجتمع الرومانى منـــذ المراحل الأولى من قيامه .

ان غالبية لهـــا أهميتها من الرومان وهم البليبيانز (أى أسرى الحرب السابقون وسكان المناطق الخاضعة والمهاجرون النازحون بارادتهم) والذين كانوا أحرارا دون التمتع بأى حق سياسى ، قـــد امتزجوا على نحو تدريجى بالعـــائلات غـــير الارستقراطية التى دفعت الى الفقر المدقع .

نضـــال الشعب ضـــد الارستقراطيـــة :

ولقـــد شن البليبيـــانز مستندين الى تأييـــد المواطنين الفقـــراء نضالا مستيئسا ضد الارستقراطية العشائرية ، وضـــد الأشراف النبلاء . وقـــد اقترن هـــذا النضال بالالغـــاء المتزايد للملكيـــة فانتهى الى الانهيـــار الكامل للنظـــام العشائرى ، وشرع مجتمع مواطنى المدينـــة يشتمل كل من يملكون الأرض بغض النظـــر عن

اصولهم البليبيانية او الرومانية . ومن ثم أصبحت الثروة هي المبدأ الأساسي للانقسام الاجتماعي وبينما اندمجت الفئات العليا من البليبيانز في الأشراف أخذت الفئات الدنيا منهم تعاني مزيدا من الفقر حتى أن انهيار الملكية في سنة ٥٠٩ ق.م وحلول الجمهورية محلها لم يفيد هذه الجماهير بشيء .

العهد الجمهوري المبكر :

وقد أدى التطور الاقتصادي الى مضاعفة دور عمل العبيد ومن نتاج ذلك أن الدولة تحولت أكثر فأكثر الى جهاز للسيطرة الطبقية في يد ملاك العبيد وغيرهم من المراتب الثرية .

ولقد كانت السلطة العليا في الجمهورية الرومانية في يد مجلس الشيوخ ، فقد اعقب طرد آخر الملوك نشوء مجلس من حاكمين يتمتعان بحقوق متساوية (كانا يسميان في أول الأمر بالبرايتورز ثم فيما بعد بالقناصل) . وكانا يرأسان مجلس الشيوخ ويتوليان امرة الجيش ، ثم ظهر في الوجود على نحو تدريجي مجالس من درجة دنيا سميت بالكوايستورز ولايديلز ، لكن هذه المناصب كانت شرفية فاعتاد شغلها أفراد من الفئات الثرية كما كان حق شغل أي منصب عال في الحكومة او الدخول في مجلس الشيوخ قاصرا على النبلاء والأشراف .

ولذلك فان النضال بين الأشراف والبليبيانز لم تنقطع ابدا .

وتمكن الأخيرون من اكتساب عدد من التنازلات كان من اهمها الغاء الاستعباد بسبب الدين ، ومنها كذلك السماح لهم بدخول أعلى مجالس القضاء ، وكفالة انشاء مكاتب للمحاكم الشعبية على أن يتم انسحابها من البليبيانز وحدهم ثم منحوا حق الاعتراض على قرارات مجالس الأشراف ، اذا ما تعارضت مع مصالحهم .

وقد أدى الصراع بين الاشراف والبليبيانز (العامة) الى استكمال انقسام المجتمع وفقا لفروق الملكية ، فاندمجت بقايا عشائر الأشراف والفئة العليا من البليبيانز فتشكلت منهما فئة جديدة متمايزة هى فئة النبلاء . وهنا تعدت كلمة البليبيانز ، معناها القديم لتقتصر على أدى فئات الشعب المستغلة .

واتسمت السياسة الخارجية لأقدم الجمهوريات فى التاريخ (ما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد) بالحروب المستمرة تشنها روما للسيطرة على شبه جزيرة الابينين .

وفى هذا الوقت كان تشكيل المجتمع والدولة العبوديان قد اكتمل .

العصر الذهبى للمجتمع العبودى :

وبالانطلاق من تطور العلاقات العبودية ومن المحاولات المتزايدة المستمرة التى بذلتها الطبقة الحاكمة لحل المشكلة الزراعية عن طريق استعمار مناطق جديدة نشأت السياسة العدوانية للدولة الرومانية التى بدأت تسعى الى مجالات جديدة للنشاط فيما وراء شبه جزيرة الابنين ، وأدت الحملات التوسعية التى شنت الى تمكين الرومان من اخضاع قطاع كبير من شمال افريقيا والبلقان وآسيا الصغرى واسبانيا ومنطقة بلجيكا الحالية .. الخ ، وتحويلها الى مقاطعات رومانية ومصادر لاثراء الطبقة الحاكمة مالكة العبيد ، وفى نفس الوقت لكفالة فيض هائل متدفق من العمل العبودى الرخيص للغاية .

سيادة العمل العبودى :

وقد أدى انتشار عمل العبيد الى استبعاد العمل الحر ، الأمر الذى انعكس بشكل خاص فى الزراعة ، اهم مجالات الانتاج

فى روما . وقــد أدى الاستخدام الواسع النطاق لعمل العبيــد الى قيــام مزارع اللاتيفونديا الواسعة التي كانت محاصيلها تخصص اساسا للسوق . وهنــا ونتيجة لحرمانهم من وسائل المعيشـــة تحول الفلاحون على نحو تدريجى الى مستأجرين عنــد كبار الملاك أو الى الاندماج فى صفوف سكان المدن حتى أن جزءا منهم أصبحوا حرفيين بينما انتهت الغالبية الى خلق فئــة جـديدة هى العناصر التى لا طبقة لهــا ، عناصر الفولجاس المتجولون أو الرعاع الذين راحوا يعيشون على العطايا الزهيدة التى اختارت الطبقة الحاكمة تقديمهــا لهم .

وكان القرن الثانى قبل الميلاد هو نقطة التحول فى تطور القطاع العبودى لأن العبودية كانت فى هــذا الوقت تتحول الى الشــكل الأساسى للانتــاج الاجتماعى .

نمو رأسمال التجارة والرأسمال الربوى :

وتطورت تجــارة العبيــد الى درجة كبيرة فتأسست أســواق عديدة للعبيــد فى روما الى جانب المراكز التجارية الأخرى .

وسيطرت التجــارة الخارجيــة على السوق الداخلية وكانت « المقاطعــات » الرومانيــة الجــديدة هى المناطق التى اخضعت بالقوة فراحت تمد العاصمة الاستعمارية بالمنتجــات الزراعيــة والكماليــات والأدوات المعدنيــة والنبيــذ وزيت الزيتون .

وأدى هــذا التطور التجــارى بالاضافة الى تداول النقود الى تطور الربــا ، وظهــرت الى الوجــود شركات جامعى الضرائب (العشارين) الذين اشتروا حق جبــاية المكوس .

وعلى نحو تدريجى اندماج التجــار والقــائمون بتسليف النقود

فى فئـــة جـــديدة من فئـــات الطبقـــة الحاكمة عرفت بالكابالارى اى الفرسان .

اشتداد الانقسامات الداخلية فى المجتمع الرومانى :

وبقـــدر ما اشتد استغلال العبيـــد وزادت وحشـــيته بقـــدر ما احتـــدم الانقسام الأساسى فى الدولة الرومانيـــة منعكســـا فى العداء بين الملاك والعبيد ، المنتجين المباشرين لكل القيم المـــادية ، هـــذا العـــداء قـــد وجـــد تعبـــيره فى الهبات المتتاليـــة المتلاحقة التى قام بهـــا العبيـــد ، والتى كان من أهمهـــا تلك الهبة التى قادها سبارتاكوس العبـــد والمصارع .

فالمصـــارعون الذين كانوا رجال سيف محترفين كانوا يجبرون على قتل بعضهم البعض لتســـلية ملاك العبيـــد . ولقـــد كانت حياتهم شاقة مليئـــة بالمصاعب والحرمان يمكن ابتسارها فى أية لحظة . وفى عام ٧٤ قبل الميـــلاد نجح مجموعة من العبيـــد وعلى رأسهم سبارتكوس فى الهروب من مدرسة للمصارعين فى كابوا لا ئذين بجبل فيسوفيوس . ولم يكونوا يزيدون عن بضع عشرات لكنهم سرعان ما تحولوا تدريجيـــا الى جيش قوامه ٦٠ ألفـــا نظموه على النمط الرومانى فأثار الفـــزع والرعب فى قلوب ملاك العبيـــد .

ووقف الفـــلاحون الأحـــرار الى جانب هـــؤلاء العبيـــد الذين تمكنوا بفضل عبقرية سبارتاكوس وبفضل بطولتهم التى لا تعرف الاذعان من انزال سلسلة من الضربات القاصمة بالجيش الرومانى ، بل وقـــد ظلت الامبراطورية الى ســـنة ٧١ قبل الميـــلاد مسرح واحـــد من اعظم الحـــروب الأهليـــة فى التـــاريخ القـــديم ولم تتمكن الطبقـــة الحاكمة من كبت وتحطيم حركة العبيـــد هـــذه الا بتركيز كل قواها . ومن هنـــا ظل النظـــام العبودى مؤسسة

مستقرة ، فان العبيد لم يكونوا يملكون فى تلك الأيام البعيدة ، وبمعنى آخر لم يكن فى مقدورهم أن يملكوا ، على الرغم من القدرات العظيمة التى تمتع بها قادتهم برنامجا واضحا لتحرير انفسهم ، كما أن الخلافات الداخلية فى صفوف العبيد أنفسهم كانت من الأسباب الرئيسية فى الهزيمة التى حلت باسبارتاكوس .

ان لهذه الهبة على الرغم من نهايتها مغزى تاريخيا عظيما ، فقد وجهت الى النظام العبودى ضربة قاسية ، وأهم من ذلك أنها دعمت تقاليد الحركة التحريرية . وما زال اسم سبارتاكوس رائعا وما زال مبعث فخار فى صفوف الشعب العامل فى مختلف البلدان ، هذا الشعب الذى أصبح اسمه بالنسبة له رمزا للنضال الاستعمارى لتحرير الشعب العامل من نير الاستغلال .

هذه الفترة نفسها هى التى أصبحت العلاقات فيها بين روما ومختلف اقاليمها شديدة الامتداد ، اذ نشبت الحروب القومية ضد الحكم الرومانى ، كما اتسع نطاق المنازعات بين كبار الملاك الأثرياء والفلاحين الفقراء ، الا أن النظام العبودى على اطلاقه كان ما يزال على الرغم من كل هذه التمزقات بعيدا عن أزمته الحقيقية ، فان هذه الحروب لم تكن الا التعبير عن أزمة أصابت شكلا محددا من اشكال الدولة العبودية ، وهو الذى كان ماثلا فى الجمهورية الرومانية ، عن أزمة كانت تنطوى على أمراض الانهيار الذى كان مقدرا أن يحل بالمجتمع العبودى الرومانى .

انهيار الجمهورية وقيام الامبراطورية الرومانية :

وتعاظمت الأزمة داخل الجمهورية الى ان اتخذت فى اواسط القرن الأول قبل الميلاد شكل الحرب الأهلية التى اشتركت فيها اقسام واسعة من الطبقة الحاكمة .

أما السبب فقد كان فشل الجمهورية الرومانية المرتكزة على نظام دولة المدن فى كفالة الدور القيادى لملاك العبيد فى اطار

هـذه الامبراطورية الاستعمارية الشاسعة المترامية الأطراف .
وراح ملاك العبيد يتطلعون الى الديكتاتورية العسكرية باعتبارها الوسيلة الأساسية الناجعة لتدعيم حكمهم ، واصبح فى وسع ملاك العبيد فى المقاطعات شغل مكاتب الدولة . وهنا اذن قامت الدولة العبودية الرومانية الجديدة باعتبارها حكما طبقيا لا لملاك العبيد فى العاصمة الرومانية وحدها بل كذلك لهؤلاء الملاك فى ايطاليا بأسرها بل وفى المناطق المفتوحة جميعها .

وقد بدأ هذا الشكل الجديد للدولة الرومانية فى ظل ديكتاتورية القيصر (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) وفى ظل ابنه المتبنى وخليفته الرسمى أوكتافيوس أوجسنوس (القرن الأول بعد الميلاد) .

ان النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد هو الذى يشكل مع القرن الثانى ذلك العصر الذى بلغت فيه روما أعظم درجات القوة والرخاء والاتساع الاقليمى .

انهيار الدولة العبودية الرومانية :

ان تداعى وسقوط مجتمع ما لا يمكن أن يكتمل بين يوم وآخر ، بل هو يتم فى عملية طويلة تتطور على نحو تدريجى ويحتد ويضعف من وقت لآخر . وعليه تكون اعراض تداعى الامبراطورية الرومانية قد بدأت تظهر فى وقت لم يبد فيه أن شيئا ما يتهدد هذه الدولة القوية .

من هذه الأعراض عرض بدا مبكرا فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد وأوائل القرن الثانى ونعنى به الانحلال التدريجى الذى حل بنظام المزارع المبنى على عمل العبيد ، بعد أن لم تعد لهؤلاء أى اهتمام بنتائج عملهم ، الى أن انخفض مستوى الانتاج

بدرجة مروعة ، مما اجبر ملاك مزارع اللاتيفونديا على انشاء نظم معقدة للاشراف والاجبار على العمل ادت بدورها الى رفع تكلفة الانتاج .

ثم توصل كبار الملاك الأغنياء الى أنه من الأجدى لهم والأكثر جليا للربح تقسيم مزارعهم الكبيرة الى مزارع صغيرة على أن يقدموا الأدوات الزراعية للعبيد ليعملوا بها مقابل نصيب من المحصول يقتطعونه لأنفسهم ، فجزئت المزارع الكبيرة لتؤجر فى شرائح للفلاحين الأحرار الذى أطلق عليهم اسم المستعمرين (الكولونى) وكان البعض منهم يدفعون الايجار نقدا ، بينما الآخرون (وهم العدد الأكبر) يدفعونه عينا ، ثم راح هؤلاء الكولونى يتحولون تدريجيا الى فلاحين مستقلين ، أخذت صفوفهم تتسع على حساب الفلاحين الأحرار الفقراء والعبيد الذين يتحررون من الرق .

ومن الحوافز الأخرى طريقة تأجير الأرض للمنتج مقابل جزء من دخله .

أزمة النظام العبودى :

وتحولت أعراض الانهيار المعلق فوق رأس النظام العبودى والعلاقات الانتاجية المرتكزة على العبودية ، والتى اتضحت بشكل خاص فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد الى أزمة حادة بحلول القرن الثالث بعد الميلاد لتمتد وتشمل المجتمع العبودى الرومانى بأسره .

وطرأت تغيرات بعيدة المدى فى أوضاع كل من الطبقتين

المتناقضتين : العبيد وملاك العبيد ، وعلى العلاقات فيما بينهما . وادى انعدام معدل الربح من عمل العبيد الى خلق الحوافز الدافعة الى تحريرهم . ويمكن القول هنا بأن الملاك قد اجبروا الى حد ما على التخلى عن أسلوب الالزام والقسر المباشر سعيا الى اثارة اهتمام العبيد بنتائج عملهم . وفى نفس الوقت كان الاستغلال الواقع على الفلاحين الكولون يشتد مما أحدث تطورات انتهت باندماج العبيد والأحرار . وفى الكثير من الأحوال تحول الحائزون الصغار والمزارعون الذين كانوا يملكون بعض الوسائل المتوسطة الى كولون . واصبحت المدينة الرومانية شأنها فى ذلك شأن كافة المدن القديمة تعج باتحادات الملاك الاحرار ، الأمر الذى نسف الطابع العبودى للمدينة .

وقد دفع الفلاحون الأحرار الذين كانت الروابط توحدهم الى الى حافة الفقر المدقع ، ثم تراكمت الضرائب الباهظة مع انتزاع الأراضى من الملكية العامة انتزاعا اقترن به افقار غالبية سكان المدن ، لتنتهى الى تداعى وانهيار المدن الرومانية .

وجاء القرن الثالث بعد الميلاد بأزمة اقتصادية حادة تسببت فى تكثيف حدة المتناقضات الاجتماعية ، فبدأ الكولون وصعاليك المدينة يهبون فى جماهير غفيرة ضد ملاك العبيد واشتد الميل الى الانفصال فى المقاطعات ، ونشبت المنازعات القاتلة بين مختلف المجموعات فى سبيل العرش وبدأ الجيش يلعب دوا متزايدا فى هذا النضال عن طريق تقديم المساعدة للتكتلات المختلفة بالتناوب .

وفيما بين ١٩٣ ، ١٩٧ بعد الميلاد اندلعت الحرب الأهلية بين اقسام معينة من الطبقة الحاكمة لتفضى بالبلاد فى نهاية الأمر الى أزمتها السياسية الحادة .

التحلل النهائي الكامل لأسلوب الانتاج العبودي :

وقد شكل تطور نظام الكولوني ، واحدا من القسمات الأساسية التي أفضت الى تحلل العلاقات الانتاجية العبودية . ففي القرن الرابع بعد الميلاد ، على أيام الامبراطور قسطنطين كان الكولوني مرتبطين بالأرض التي يزرعونها . وكان هذا الفلاح يجبر أيا كان أصل آبائه على البقاء خادما دائما لمالك الأرض ، الأمر الذي حوله بالفعل الى انسان أسير ، لكن هذه العملية لم تكن قد تمكنت بعد من التحول الى نظام متكامل من العلاقات الاقطاعية ، لأن النظام السياسي العبودي كان ما يزال قيدا يكبح هذا التطور الاقطاعي .

وأصبحت القنانة مصيرا لا للكولوني وحدهم بل كذلك لروابط الحرفيين ، وقد اقترن بها الافقار المستمر لسكان المدن .

وكان لتحلل وانقراض أسلوب الانتاج العبودي آثار بعيدة المدى على العلاقات القائمة في صفوف الطبقة الحاكمة نفسها ، فان التدعيم المؤقت للدولة باعتبارها جهازا يساند المصالح الطبقية لملاك العبيد قد أعقبته الفرقة السياسية اذ كان ملاك الأرض الأثرياء يزدادون استقلالا عن السلطات المركزية ، ووضع الفلاحون الأحرار أنفسهم في حماية هؤلاء الملاك مستميذين بذلك من الافقار الكامل ليجدوا أن قيودهم تشتد وتتعاظم بذلك .

وانتهت الهيئات الجماهيرية القوية الى اضعاف حكم ملاك العبيد ، والتحمت الأزمتان السياسية والاجتماعية ، ومن الأدلة ذات الأهمية القائمة على ذلك تقسيم الامبراطورية الرومانية في سنة ٣٩٥ الميلادية الى امبراطوريتين : شرقية وغربية .

الثقافة والأيديولوجيـة فى اليونان القديمة وروما :

وقد بلغت الحضارتان الأغريقيـة والرومانية واللتـان تقدمتا وتطورتا خـلال عد من المراحل شأوا لم يشهد العـالم القـديم مثيلا له من قبل . وقـد مارستا نفوذا وتأثيرا خالدين على ثقافة عـدد كبير من الشعوب ، لكن تدعم وازدهار النظـام العبودى فى اليونان القديمة وروما هو الذى وسع من الهوة التى قامت بين أيديولوجية الكتل المستغلة والأيديولوجية الرسمية التى أعتنقتهـا الطبقـة الحاكمة ، كمـا أن الصراع بين مختلف المجموعات التى نشأت فى نطاق الطبقة الحاكمة (بين الارستقراطيين والديمقراطيين ، بين أنصار الامبراطورية وانصار الجمهورية) قـد وجد انعكاسا له فى مختلف الاتجاهات الأيديولوجية عامة وفى الفلسفة على وجه الخصوص .

فقـد نشب خلال تاريخ اليونان القديمـة وروما بأسره صراع لا ينتهى بين الاتجاهين الفلسفيين الرئيسيين : المـادية والمثالية . وبينما تواجدت المثالية كأيديولوجية دينيـة مسيطرة ، منذ المراحل الأولى لتطورهما انبثقت المـادية اتجاها فلسفيا ينكر الأصل الالهى للانسان والطبيعـة . وقـد راح فلاسفتها يسلكون مختلف الطرق لتفسير المفهومين الأساسيين لفلسفتهم : الأساس المـادى للكون وقدرتنـا على معرفتـه بحواسـنا .

وقـد كان اتباع المدرسة الأيونيـة التى اشتقت اسـمها من منطقـة أيونيـا ، هم الذين قدموا أول تعبير عن الاتجاه المـادى فى الفلسفة الأغريقية . ويعتبر طاليس وأناكسيماندر وأناكسيمنز فيلسوفين طليعين لهـذه المدرسـة . ثم جاء هرقليطس فى القرن السادس قبل الميلاد ليطور افكارهما ويعلم الناس أن النـار هى الأساس المادى لكل شىء . ثم تكفل عـدد من فلاسفة الاغريق

القدامى المنتمين الى المدرسة المـادية (ليوسيبوس وديمقريطس على سبيل المثـال) بتقديم فكرة البنيـة الذرية للمـادة . وكان من معتقداتهم أن الذرات وهى جزئيات صغيرة لا يمكن تقسيمها ، هى التى تحـدد اذا ما أخذت فى تضاعفاتها التركيبيـة وتنوعها ، وحـدة وتنوع العـالم .

هـذه الأفكار طورها الى مدى ابعـد المفـكر الأغريقى أبيقور والشاعر الرومانى لوكديطس .

أما وجهة النظر المثالية فقـد كان من دعاتهـا وأعمدتها العالم الرياضى الاغريقى فيثاغورس واتباعه العديدون (القرن الخامس قبل الميلاد) . وقـد راحوا يفنـدون فكرة التركيب المـادى للعالم ويطرحون فكرة الرقم باعتباره جوهر كل الأشياء ، وكانوا يعتقدون شأن الدين نفسه بخلود الروح .

وقـد كان سقراط وافلاطون اعظم الفلاسفة المثاليين الاغريق (الخامس والرابع قبل الميلاد) . وقـد نادى فلاطون الذي كان من أتبـاع سقراط بأن كل المواد والظواهر المحيطة بالعالم ليست الا انعكاسا باهتـا وضعيفا لمثل خالدة لا تتغير . الا أن أفلاطون لم يكن يحارب المـاديين بالاستناد الى فلسفته وحدها ؛ بل كان يتهم أتبـاع ديمقريطس بالجرائم التى كان الاعدام عقوبتها وفقـا لقوانين أثينـا ، بل وقـد هـدد بشراء وحرق كل مؤلفـات ديمقريطس . أما السـبب الذى دعا الى قيـام هـذا الصراع المستميت بين المجموعتين فهو أن المـاديين كانوا على العموم دعاة للأفكار التقدميـة والديمقراطيـة ، بينما كان المثاليون يجدون المساندة من القوى الرجعيـة والارستقراطية .

وقـد شغل أرسطو (القرن الرابع قبل الميلاد) ، مكانة هادفة فى الفلسفة القديمة . وتقوم شهرته رغم أنه لم يكن ماديا متماسكا

على انتقاده الشديد والمعقول لنظريات افلاطون .

العلم :

لم يكن العلم الذي عرف أثناء تشكيل دول المدن الاغريقية قد انقسم بعد الى فروعه المعروفة ، بل كان يشمل كل مناحي المعروفة . والسبب هو ضآلة قدر المعرفة في ذلك الوقت ، وهي الضآلة التي نتجت بدورها من أن القوى الانتاجية كانت ما تزال متخلفة . ولم يؤدي التطور الاقتصادي والسياسي في اليونان القديمة الى انتباق مختلف العلوم : الرياضيات والفلك والطب والتاريخ والطبيعة .. الخ . الا في القرن الخامس قبل الميلاد . وقد وجد هذا التطور دافعا جديدا من حملات الاسكندر العظيم والتي أدت الى اثراء متبادل بين الثقافات الاغريقية والشرقية . ان هذا العصر الهيليني الجديد هو الذي انجب للعالم رجال علم مشهورين من أمثال الجغرافي هيرودوت والرياضي الميكانيكي أرشميدش وغيرهما .

وفي روما وجدت هذه الاتجاهات العلمية الاغريقية كل ترحيب ، فأصبحت هناك أساسا لمزيد من التطور . ويعتبر ماركوس تيرينتيوس فارو الذي عاش في أواخر العهد الجمهوري واحدا من أعظم ممثلي الفكر العلمي في روما . وقد اشتهر بتأليف دائرة كبيرة للمعارف العلمية وعدداد كبيرا من المقالات في العديد من فروع العلم بداية من اللغويات الى الهندسة الزراعية .

كما اشتهر الرومان بدورهم البارز في ميدان القانون وفقه التشريع .

وما زالت مؤلفات كثيرة في التاريخ وعلم السلالات البشرية من التي وضعها مؤلفون مرموقون من أمثال يوليوس قيصر

وسالوستيوس وتاسيتوس وبلوتارخ وابيان ذات اهمية بالغة الى أيامنا هذه .

الفن :

وقد ساهمت اليونان القديمة وروما فى اغناء العالم بأعمالها الفنية الخالدة وبما قدمتاه من كنوز للحضارة العالمية .

وما زالت النماذج الأولى من الأعمال الأدبية الأغريقية مثل الأساطير والالياذة والأوديسا (هومير) تثير اعجاب القارىء المعاصر بفكرها العميق وشكلها السليم وتصويرها الواقعى للعواطف والمثل والآمال الانسانية (بغض النظر عن اخيلتها الوهمية واطارها الدينى) .

وما زال الأدب الاغريقى القديم يعيش الى أيامنا هذه فى أعمال الكثيرين من أمثال أرستوفانيس مؤلف العديد من المسرحيات الكوميدية الساخرة وسوفوخليس واخيلوس وأيوريبيديس الذين أبدعوا تراجيديات عديدة ، ومن أمثال كاتب الحكايات والأساطير ايسوب .. الخ . ولا بد لنا أن نشير هنا بشكل خاص الى كتاب هسيود : « الأعمال والأيام » ، والذى يصف فيه باحساس عظيم ، الحياة اليومية والعمل اليومى لمزارع من عامة الشعب .

ولم يكن الأدب الرومانى مجرد تقليد للأدب الاغريقى والهيلينى ، بل لقد أبدع هو نفسه العديد من الاعمال الأدبية المثيرة للعجب ، الأصيلة فى الموضوع وفى الأسلوب . ومن ادلة ذلك أن للشعراء الرومانيين كاتولوس وفيرجيل واوفيد وهوراس مكانة عالمية مشهورة حتى أن اعمالهم اثرت بعد قرون طويلة فى شعراء

اوروبيين عظماء مثل دانتى (ايطاليــا) وبوشكين (روســيا) ، وميكيفيتش (بولنــدا) . أما الروايات كشكل خاص من الأدب ، ومن امثلتهــا : (الجحش الذهبى بقــلم ابوليوس والساتيركون بقلم بيترونيوس) ، فقــد انتشرت بشكل خاص فى روما .

كمــا أن الفن المسرحى قــد بلغ ذرى عاليــة من التطور فى اليونان القديمة وروما . ففى اثينــا على سبيل المثــال أصبح الفن المسرحى جزءا لا يتجزأ من الحيــاة الاجتماعية . أما روما فقــد شهدت أداء مسرحيــا فنيــا بالغ الرقى ، الى جانب الأشــكال البربرية من الثقافة العبودية والتى عبرت عنها مصارعات العبيد . فان الرومان كانوا يرفهون عن أنفسهم بمشاهدة المصارعات التى كان العبيــد يقتتلون فيهــا بين هتافات وتهليل النظارة .

ومما يذكر أن الخطابة شغلت مكانة خاصة فى الحياة الاجتماعية فى كل من اليونان القــديمة وروما ، فتطورت الى درجة عاليــة فى خطب ليزياس وديموستين (الاغــريق) وششيرون (روما) ، والذين اشتهروا بمقدراتهم الخطابيــة الرفيعــة .

أما النحت الاغريقى والرومانى فمشهور الى درجة لا تحتاج منا الى كلمة واحــدة نذكرها .

كما بلغت الموسيقى والرقص فى اليونان القديمة شأنا أعظم منها فى روما .

ومن الممكن لنــا اعتبــار ثقافة الامبراطورية الرومانية تمثــلا عضويا للثقافات الأغريقية وثقافات العالم الهيلينى وروما نفسها . فان ثقافة رومانيــة هيلينيــة قــد أنتقلت هنــاك وراحت تتطور فى القرون الأولى من حيــاة هــذه الامبراطورية ، ولكن القرنين الرابع والخامس الميلاديين واللذين يشكلان عصر الأزمة القاسية

التى نزلت بأسلوب الانتاج العبودى قد حلا ليشهدا التحلل التدريجى للمستوى الثقافى العام فى هذه الامبراطورية بفضل الديانة المسيحية التى لعبت دورا هاما فى هذا الصدد . فهى من ناحية قد استفادت من بعض مكونات الحضارة الاغريقية الرومانية بينما شنت من الناحية الأخرى حربا مدمرة على أعمال النحت التى تصور الجسم البشرى « الآثم » وعلى كل الاتجاهات الفلسفية وكتب « الزندقة » والأعياد والاحتفالات « الشيطانية » .

نشوء المسيحية :

ولقد كانت حالة البؤس التى وجدت فيها الكتل والعبيد والكولونى والشعوب المقهورة ، هى العامل الأساسى فى ابراز المسيحية الى الصدارة ، فان ملاك العبيد كانوا يكبتون الحركات الثورية التى تشعلها الكتل المستغلة والقبائل والشعوب المقهورة عن طريق المجازر الجماعية الدامية . وأحس الشعب باليأس الأبدى من الحرية فى هذا العالم ، الأمر الذى ادى الى رواج العبادات الشرقية القديمة التى بشرت الشعب بحياة افضل فى العالم الآخر . وقد استطاعت المسيحية الصاعدة امتصاص وتمثيل العديد من العناصر المكونة لهذه الديانات القديمة . وكانت فى بدايتها دينا للمقهورين والبؤساء (التعابى) لكن سرعان ما لحق بهؤلاء ، فى الايمان بالمسيحية قطاع من اغنياء المجتمع الذين كانوا لسبب أو لآخر فى صفوف المعارضة ضد الحكام القائمين ، وسريعا ما اختفت بساطة الجماعة المسيحية والمساواة بين كافة أعضائها ، ذلك أن تركيز الثروة فى أيدى الطائفة والطابع المعقد المتزايد الذى اكتسبته الطقوس قد أديا الى انعزال قسم من قادة الطائفة هم الكهنة ، ثم تأسس جهاز كنسى اتسم بطابع هرمى معقد .

وما ان حل القرن الرابع الميلادى حتى كانت المسيحية قد اكتسبت صفة الدين الرسمى السائد . وهى قد أعلنت الحرب بعد ان كانت مضطهدة فى اواسط القرن الثالث على كل الديانات غير المسيحية واتباعها .

سقوط الامبراطورية الرومانية :

ان القرنين الرابع والخامس الميلاديين هما اللذان شهدا التحلل النهائى للتشكيل الاجتماعى الاقتصادى الذى عرف باسم العبودية . ذلك ان عمل العبيد كان قد أصبح عقبة حقيقية أمام أى تطور جديد فى القوى الانتاجية . . وكانت الهندسة الزراعية قد اكتسبت فى هذا الوقت معرفة تكنيكية تكفى لتحقيق ارتفاع كبير فى الانتاجية الزراعية ، لكن تطبيق هذه المعرفة كان يتطلب موقفا متسما بالعناية والوعى من جانب الكادح ذاته ، الأمر الذى كان متعذرا ما لم يكن هو نفسه مهتما بنتائج عمله . وبهذا يكون التطور التاريخى نفسه هو الذى أثار مشكلة الانتقال الى علاقات أنتاجية أخرى أكثر تقدما .

وكانت الهبات الجماهيرية المتصلة من عوامل اضعاف النظام العبودى ، ذلك ان المقاطعات الرومانية الجنوبية (أفريقيا الرومانية) كانت تمور بالحركات والهبات من جانب العبيد والفلاحين الأتباع والحرفيين طوال القرنين الرابع والخامس بينما تميز القرنان الثالث والرابع بهبات الشمال (الغال وأسبانيا الشمالية) وكثيرا ما كانت تتخذ طابع التمردات العنيفة والحروب التحريرية .

وفى نفس الوقت كانت الامبراطورية الرومانية الغربية تتعرض للهجمات من القبائل المعادية المتاخمة وقد حاول الأباطرة فى أول

امرهم انقـاذ الوضع باللجوء الى الفرق الألمـانية المرتزقة ، لكنهم سرعان ما تحولوا الى دمى فى أيدى رؤساء القبـائل البربرية .

وفى سنة ٤٧٦ م تمكن احـد هؤلاء الرؤساء ـ أودواسر ـ من عزل آخر الأباطرة . ومن المتفق عليـه اعتبار هـذا التاريخ ميقاتا للانهيـار النهـائى الذى حل بالامبراطورية الرومانيـة الغربية . ونظرا لأن أسلوب الانتـاج العبودى كان قـد وصل الى ذروته فى الامبراطورية الرومانيـة فانه من الممكن اعتبار سقوط هـذه الأخيرة من وجهة النظر التاريخيـة العامة انهيارا للنظام العبودى نفسـه .

الفصل الثالث

المجتمع الاقطاعى :

وكما نمت علاقات الملكية العبودية فى داخل التكوينات المشاعية البدائية ، كذلك تشكلت العلاقات الاقطاعية فى داخل النظام العبودى ، فكل ملكيات الفلاحين تقريبا ، قد أصبحت بالفعل فى حوزة كبار الملاك الأثرياء حيث كان يجرى استغلال العبيد والفلاحين الأتباع (الكولون) فى مزارع كبيرة تعتبر بشائر الملكيات الاقطاعية الكبيرة .

بيد أن نشوء طريقة الانتاج الاقطاعية كان يقف عائقا فى طريقها النظام العبودى السائد . ولم يكن هناك الا الثورة الاجتماعية للقضاء على هذا النظام وفتح الطريق امام التكوين الاقطاعى الجديد ، الذى أصبح مرادفا عند المؤرخين الماركسيين للعصور الوسطى .

ويطلق على الحقبة المقترنة بولادة ونشوء العلاقات الاقطاعية الطور الأول من النظام الاقطاعى ، وهى معروفة بمطلع العصور الوسطى .

وفى أوروبا تمتد هذه الفترة من القرن الخامس حتى بداية القرن الحادى عشر ، وفى آسيا تختلف الصورة ، فترجع بداية ظهور العلاقات الاقطاعية فى الصين الى القرن الثالث ، وفى الهند الى القرنين الرابع والخامس ، وفى الجزيرة العربية الى القرن السابع ، واكتمل تكوينها فى القرن الثامن فى الصين ، وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى معظم البلدان الأخرى .

وتعرف الحقبة التى نمى فيها الاقطاع بالطور الثانى فى تطور النظام الاقطاعى . وفى هذه الفترة حدث ثانى تقسيم عظيم للعمل ، فانفصلت الحرف عن الزراعة ، ونمت المدن وأصبحت مراكز تجارية حيث يمارس الحرفيون مهنهم . وامتدت هذه الفترة فى أوروبا من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر . وفى آسيا وشمال افريقيا تبلورت فيما بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر واستمرت حتى القرن الخامس عشر .

اما الطور الثالث من تطور النظام الاقطاعى فيتميز بتحلل العلاقات الاقطاعية ونشوء الراسمالية ويعرف بأواخر العصور الوسطى ، ويمتد هذا الطور من القرن الخامس عشر الى منتصف القرن السابع عشر فى اوروبا ، هذا بينما ظلت العلاقات الاقطاعية لفترة اطول كثيرا فى بلدان آسيا وافريقيا نتيجة لتوسع الاستعماريين الأوروبيين . وعلى كل فيمكن اعتبار القرن السابع عشر كقرن انهيار الاقطاعية وبداية الراسمالية .

١ ـ بداية العلاقات الاقطاعية

(مطلع العصور الوسطى) :

وفى هذا الطور ظهرت السمات الأساسية لأسلوب الانتاج الاقطاعى مثل ملكية كبار الملاك الاقطاعيين للأرض ، والصور المختلفة للايجار فى الأرض كوسيلة للاستحواذ على ثمار عمل الفلاحين والحرفيين .

تطور النظام الاقطاعى فى أوروبا الغربية :

تمكنت القبائل الألمانية والسلافية القديمة عن طريق الاتصال بالمجتمع العبيدى الرومانى من تطوير العلاقات الاقطاعية مباشرة ...

المشاعيــة البدائيــة . وفى فترة انحـلال الامبراطورية
مرت شعوب هــذه القبائل بتجربة انقسام المجتمع
رغم كونهــا كانت ذات سمة أبوية بدائية جـدا .

النزاع بين القبائل والدولة الرومانيــة ، أصبحت هــذه
تواقة الى القضاء على سلطة الدولة الأخيرة .

غزو الامبراطورية الرومانيــة الغربيــة والبيزانطيــة
القبائل السلافية ، لقيت هذه القبائل المساندة من العبيد
، لأنهم كانوا قــد جلبوا معهم نظــاما جــديدا استفاد
المحليين منــه كثيرا .

ملكيــة الأراضى والعبيــد التى تقع أساسا فى حــوزة
الملاك الرومانيين الأثرياء ، أدخل الألمــان شكلا أرق من
الاســتغلال العبودى اذا قارناه بالرومان ، وجلبوا معهم
تنظيماتهم المشاعيــة التى حسنت فى أول الأمر من حيــاة
المحليين الأحـــرار .

وحدثت عملية جمع بين الأشكال والتقاليد التى مارسها الجرمان
فى النظام المشاعى وبين العنــاصر الاقطاعيــة التى ظهرت
المجتمع العبودى المحتضر . والمزج بين كلتــا العمليتين
حافزا سريعا لنشوء علاقات اقطاعيــة جديدة ، واستوعبت
الألمــانية مثل الفرانك الذين استوطنوا الأراضى المعروفة
بفرنســا ، استوعبت المســتوى المرتفع من تطور القوى
المــيز للامبراطورية الرومانيا . ونتيجــة لعــددهم
(بالمقارنة بالســكان الأصليين للأراضى الرومانية) فقــد
على اتبــاع النظــام التقليدى فى ملكيــة الأرض . ولكنهم
الوقت ادخلوا حيــاة جديدة فى المجتمع الرومانى المتحلل

وطوروا الانتاج ، وامتزج ملاك الأراضى الرومانيين الأثرياء تدريجيا بالارستقراطية الألمـانية مما ادى الى ظهور طبقة حاكمة واحدة .

واضطر الفـلاحون الذين دمرهم ملاك الأراضى الأثريـاء الى تسليمهم قطع الأراضى الخاصة بهم واصبحوا تابعين لهم . واعيدت الأراضى الى الفـلاحين لا كملكيـات ، بل كأراضى يعملون فيهـا طيلة حياتهم أو يورثونهـا .

وكان الفـلاح يورد لمـالك الأرض الذى يعمل لديه ، جزءا من محصول الأرض ويؤدى عـددا من الالتزامات ، بينما يقوم مالك الأرض بحمايتـه من اية مطالبـات لملاك الأراضى الآخرين . وكان الفلاح يحصل احيـانا على قطعة أرض اضافية بالاضافة لقطعة الأرض الواقعة فى حيازته . وبهـذه الطريقة حصل كبـار ملاك الأراضى — وكانت الكنيسة من بينهم — (واعتنق الفرانك المسيحية فى نهـاية القرن الخامس) ، حصلوا على العمل الضرورى لفلاحة أراضى جـديدة .

ويرتبط التطور المضطرد للنظـام الاقطاعى بالثورة التى حدثت فى نظـام ملكيـة الأرض فى القرن الثان .

فالأرض لم تعـد تمنح كملكيـة خاصـة ، واصبحت توزع بواسطة الملوك على الأشراف فى مقابل الولاء العسكرى ، وكان الأشراف يجنـدون الرجـال المدربين من اقطاعيـاتهم ويقودونهم فى المعركة . وكانت الأرض من هـذا النوع يطلق عليهـا اسم العطـايا والوسـايا ولا يمكن توريثهـا . فقـد كانت تمنح للانتفـاع بهـا مدى الحيـاة ويمكن للملك أن يستردها اذا اخل حائزوها بالتزاماتهم العسكرية . وعنـد وفاة الحائز تعـاد تلك الأرض الى الملك او لورثتـه .

وفى القرنين التاسع والعاشر حدثت تغيرات أخرى فى نظام ملكية الأرض ، فاكتسبت أراضى الوسايا بالتدريج صفة الوراثة وأصبحت تعرف بالاقطاعيات — ويعرف النظام المرتبط بهذا النوع من الملكية بالنظام الاقطاعى . ويرتبط هذا النظام بشدة بالرق ، ذلك النظام الذى يجبر فيه كل حائز للأرض على أن يقسم يمين الولاء والطاعة لمالك الأرض الاقطاعى الذى يعتبر سيده بينما يتحول هو الى مجرد تابع له ، يحصل على الأرض من سيده فى مقابل الخدمة العسكرية التى يقدمها له .

وفى البداية كان نظام الأشراف لا يعمل به الا أفراد قلائل من كبار الملاك ، ولكن منذ النصف الثانى من القرن التاسع اكسبت الأوامر الملكية هذا النظام قوة القانون .

وكان سلم الرتب وفقا لنظام الدولة السياسى فى تلك الفترة ، يقف على راسه الأسياد الاقطاعيين (اللوردات) الذين كانوا يعتبرون أنفسهم اشراف يلون الملك مباشرة ، ثم يأتى من بعدهم ملاك الأراضى الأقل منهم ثراء ، واخيرا اللوردات الاقطاعيين الصغار الذين كانوا يعرفون باسم الفرسان .

القوى الانتاجية للمجتمع الاقطاعى :

وفى ذلك الحين وصل تطور العلاقات الانتاجية الجديدة الى مستوى متطابق تماما مع البنيان الاقطاعى . وطالما ان القوى الانتاجية تلعب دورا رئيسيا فى العملية الانتاجية ، فانه من الأهمية القصوى تحديد مستوى تطورها فى فترة بداية النظام الاقطاعى .

ادى التطور فى استعمال الحديد الى حدوث زيادة فى استخدام المحاريث الثقيلة والخفيفة وغيرها من الأدوات الزراعية . وحدث

تقـــدم فى الزراعة : انتشر نظـــام زراعة الأرض بالدورة ا
وازدادت زراعة الكروم نتيجة لتحسن عمليـــات عصر ال
وأدخلت ابتكارات تكنيكيـــة أخرى مثل طواحين الهواء ،
طواحين الميـــاه التى كانت مستعملة فى فترة النظـــام ال
حدث تحسين لهـــا أيضا ـــ وظهرت الناعورة (وهى طار
يخفقها المـــاء وتدار بهـــا الرحى ـــ المترجم) .

ومع ذلك ، فان التقـــدم الذى وصل اليـــه الانتـــاج
الاقطاع لم يلغى الطابع المحافظ للأدوات التكنيكيـــة ا
فى جميع أطوار تطور الاقتصـــاد الاقطاعى .

العلاقات الانتاجيـــة والملكيـــة فى ظل الاقطـــاع :

لكى نحـــدد العلاقات الانتاجيـــة الاقطاعية ، يجب
نعرف أولا من هو المـــالك لوسائل الانتـــاج ، كيف تس
الوســـائل ، كيف يوزع ناتج العمـــل ، وكيف تؤثر
العوامل على مركز المجموعات الاجتماعيـــة المتعـــددة
وعلاقاتهـــا المتداخلة فى عمليـــة الانتـــاج .

وفى الفترة الأولى من النظام الاقطاعى كانت الأرض
الانتـــاج الرئيسية وكان الحاكم أو اللورد الاقطاعى يه
ملكيـــة الفـــلاح الحرة للأرض نادرة . وعلى ذلك
القرون المشاعية الزراعيـــة على بقاءها كتنظيم اجا
يخـــدم مصالح الفـــلاحين . وكان اللوردات الاقط
اراضيهم بطريقتين ، وكانت أرض المزرعة مقسمة الى
فكوخ الفـــلاح والحديقـــة من حوله ، هى ملك له
المزرعة فكانت ملكيـــة للمشاعيـــة وكان يعاد بان

بين اعضاء الكوميون لزراعتهـــا ، اما الغــابات والمراعى وغيرها من الممتلكات فكانت لا تخضع للتقسيم وتخص الكوميون .

وتغير الوضع بالتدريج ، فلكى يحصل السيد (اللورد) على الفائدة من أرضه لجأ الى تعيين « خولى » ليتولى الاشراف على الأراضى المزرعة . وكانت الطريقـــة الأولى المستخـــدمة لادارة الأراضى ، هى أن يعمل الفلاحون للسيد (اللورد) فى اقطاعيته وكان اللورد محتكرا للأراضى ، وكانت الطريقة الثانية المستخدمة فى نفس الوقت ، هو تقسيم الأراضى الى مزارع للفلاحين ، ويزرع الفلاحون الأرض بدون أن يكون هناك « خولى » عليهم ، ويدفعون جزءا من المحصول كأتاوة للسيد (اللورد) ، أما الغابات والمراعى الخ .. فقـــد كانت ملكا للسيد (اللورد) ، ولكن منح للفـــلاحين — من خلال الكوميون — حقوقا معينـــة قبلهـــا (رعى الأعشاب ، الصيـــد ، الحطب .. الخ) . وسنت قوانين اقطاعيـــة تمنـــع الفلاح من ترك اقطاعيـــة السيد (اللورد) ، اى أنه أصبح رقا .

وهاذان النظامان من انظمة استغلال الفلاحين ، أدت الى ان يسود الانتـــــاج السلعى الصغير ، واصبحت القوى الانتاجيـــة مبعثرة ، واعاق هـــذا من نمو الاقتصاد الاقطاعى الذى ساد على صورة ما المجتمعات ذات الاكتفـــاء الذاتى ، مثل هـــذا النظـــام الذى يعرف بالاقتصـــاد الطبيعى ، وينطبق تمـــاما على الظروف فى مستهل القرون الوسطى .

وفى ذلك الزمان كان الاقتصـــاد ذا الاكتفـــاء الذاتى يتطلب أن تنتج كل اقطاعيـــة جميع وسائل الاعاشة الفردية للســـيد اللورد (الزمنى أو الكنيسة) ولرقيقـــه . وكانت الأراضى الملكيـــة ينفق منهـــا على الملك وبلاطه . وادى الانحدار الاقتصادى للنظـــام العبودى ، الى انفصال الحرف اليـــدوية عن الزراعة ، واعـــاد

الوحـــدة اليهمـــا انهيـــار الامبراطورية الرومانيـــة ، حتى أصبح فى قدرة الانتـــاج المحلى تلبيـــة احتياجات اللورد ورقيقـــه . وعلى وجه التقريب فان كل البضـائع التى يتم انتاجهـــا فى الاقطاعية يتم استهلاكها داخليـــا ، بينما كانت تتم عمليـــات المقايضة لجزء صغير من الانتـــاج الحرفى .

وكان السيد (اللورد) يستحوذ على انتـــاج عمل الفلاحين فى شكل الريع الاقطاعى ، الذى كان يمثل فى ظل النظـــام الاقطاعى الهـــدف من عمليـــة الانتـــاج كلهـــا .

وبتطور الاقطاع نشأت انماط مختلفة من انظمة الريع الاقطاعى. وكان أحـــد الأشكال الأولى هو الوفاء بالريع عن طريق أداء الخدمة (العمل الاجبـــارى) حيث كان الفلاح يجبر على تكريس جزء كبير من وقتـــه فى زراعة أراضى اللورد . وكان يجبر ايضا على القيـــام بمختلف أعمال الانشاء والبنـــاء فى الاقطاعيـــة ، ونقل البضائع والمشاركة فى العمل الحرفى .

وبنمو انتاجيـــة عمل الفلاحين ، وجـــد اللورد الاقطاعى انه سيكون مربحا اكثر له ازاحة حمل الانتـــاج والقـــائه على كاهـــل الفلاحين . واصبح الريع يدفع بشـــكل عينى . وهكذا نشـــأ نمط آخر من الريع الاقطاعى . وكان ما يدفع مقابل الانتفاع بالأرض والأدوات الزراعية التى يقدمها اللورد الاقطاعى ، يمثل الجزء الأكبر من الريع المفروض على الفلاحين ، وكانت هذه الالتزامات المفروضة مقابل الانتفـــاع بالأرض تحتوى على ما يدفع مقـــابل استخدام المراعى والمروج وغيرها من الأراضى التى كانت ملكية مشاعية قبل ذلك ، ولكنها أصبحت مؤخرا ملكيـــة للاقطاعيين .

وفى مستهل القرون الوسطى كانت الخدمة الاجبارية هو نظام الايجار (الريع) الأكبر انتشارا بينما كان الدفع العينى هو الاستثناء .

وبنمو المدن كمراكز للتجارة والحرف ، أعطيت اهمية كبرى للايجار النقدى ، فلقد أصبحت مصالح اللورد ليست محدودة بحدود اقطاعيته الخاصة ، فلكى يستطيع شراء البضائع التى تنتج فى الأماكن الأخرى ، فقد وجد أن دفع الايجار نقدا أمرا مدرا للربح أكثر .

وبتطور نظام الايجار العينى والنقدى ، فان الجزء الأكبر من الريع الاقطاعى كان يدفع من أجل الانتفاع بالأرض . غير أن الريع أو فائض المنتج الذى يستحوذه السيد (اللورد) ، كان يشمل عددا من الالتزامات الأخرى تتخذ فى معظمها شكل الضرائب والاتاوات . وتتشكل فى المحل الأول من ضريبة الرأس على الرقيق ، ومن الغرامات الادارية والقضائية . وعلى سبيل المثال فان ضريبة الرأس فى فرنسا كانت عبارة عن ضريبة عامة تفرض على كل فرد فى أسرة الرقيق .

وفى بعض المناطق ، كان السيد (اللورد) يمتلك أيضا « حق تمضية الليلة الأولى » مع العروس الجديدة لرقيق الأرض . ولكن هذا الحق حل محله مؤخرا دفع ضريبة عينية او نقدية ، كذلك فرضت أيضا ضريبة على الرقيق مقابل حق الارث . وغالبا ما كانت أفضل انواع رؤوس الماشية ، أفضل الحلل أو أحد الأدوات المنزلية الهامة ، تقدم الى السيد (اللورد) الذى كان فى استطاعته أن يفرض بمحض ارادته ضرائب اخرى على الرقيق (ضريبة على الحق فى الزواج ، أو تغيير المكان أو الاقامة ، أو نقل الممتلكات الشخصية .. الخ) .

ولم يكن الأسياد يعتبرون التبعية الشخصية والقضائية والادارية للأقنان مجرد وسيلة للحصول على دخل اضافي . فنظام الالتزامات مقابل الأرض كان يحتوي في حد ذاته على عناصر نظام التبعية الاقتصادية الاقطاعية . ولكن طالما كان لدى الفلاحين ممتلكاتهم وادواتهم الخاصة فلم يكن هناك مفر من اللجوء الى اشكال معينة من القهر غير الاقتصادي لاجبارهم على تسليم الجزء الاكبر من انتاجهم الى الأمير الاقطاعي الذي يصبح في هذه الحالة السيد المطلق في نطاق منطقته وتوضع في يده سلطة قضائية وادارية واسعة . وتتدرج التبعية الشخصية للفلاحين من وضع القنانة الكاملة الى التفاوت في المراتب .

وهكذا فقد كان القهر غير الاقتصادي أحد الملامح الأساسية للأسلوب الاقطاعي في الانتاج .

وفيما بين قبائل الفرانك نشأت التبعية الشخصية للفلاحين عندما تملك كبار الملاك الأغنياء أراضي الفلاحين والمشاعيات ، واذ أصاب الفلاحون الأحرار من قبائل الفرانك الدمار والفقر فقد اضطروا الى البحث عن الحماية (الولاية والرعاية) عند جيرانهم الأقوياء لانقاذ حياتهم وبقايا ممتلكاتهم .

الدولة الاقطاعية القديمة :

تطورت الأشكال المختلفة من تبعية الفلاحين الشخصية والقضائية والادارية بشكل خاص جنبا الى جنب مع الأشكال المختلفة لنشوء الدولة الاقطاعية التي كونت البناء العلوي للدولة الاقطاعية . وفي البداية كانت المهمة الأولى للدول الاقطاعية القديمة (المملكة الفرانكية وغيرها من الممالك البربرية هو قمع هبات العبيد والكولوني في الأقاليم التابعة وجمع

من السكان المحليين فى ايطاليا والأقاليم الرومانية .
بعد اصبح هدف الدولة الاقطاعية هو الابقاء على
فلاحيها الذين كانوا احرارا ثم اصبحوا اقنانا واستغلوا
هذا الأساس . وكانت الدولة الاقطاعية القديمة ثابتة فى
مهمتها الأساسية ، وهى ضمان سيطرة ملاك الأراضى .

واتخذت الدولة الفرانكية الاقطاعية شكلها النهائى فى
الثامن والتاسع . وكانت الملامح الأساسية للدولة هو
الاقطاعى والاستقلال السياسى لعدد من ملاك الأراضى

التناقض الأساسى فى المجتمع الاقطاعى :

حافظ أمراء الاقطاع على دخلهم عن طريق اسوأ
للفلاحين (الذى أضيف اليه فيما بعد استغلال الحرفيين
كانوا المنتجين المباشرين لجميع البضائع المادية . وزاد
باطراد ، وكانت العلاقات بين الطبقتين الأساسيتين فى
الاقطاعى ـ ملاك الأراضى والأقنان ـ عدائية فى
وقائمة على التعارض الجذرى فى المصالح الطبقية ،
الأقنان يكونون غالبية السكان ويستغلهم ملاك الأراضى
أقلية ضئيلة كانت تمتلك كل الأراضى .

ووجدت فئات اجتماعية أخرى مثل الحرفيين
جنب مع الطبقات الاقطاعية الأساسية . وكانت الصفة
للمجتمعين العبودى والاقطاعى وجود فئات مختلفة ،
عديدة لها أوضاع قانونية متنوعة . وفى بعض الحالات
الطبقة الواحدة تشمل عددا من هذه الجماعات (كانت
السائدة فى العصور الوسطى تتكون من لوردات روحيين
وفى حالات اخرى نجد أن فئة واحدة (الفئة

فى فرنسا) تشمل ممثلين لفئات مختلفة ظهرت فيما بعد كطبقات منفصلة وفئات طبقية مثل الفلاحين والحرفيين والتجار والمرابين .

وتم التحول الشامل للفلاحين الفرانكيين الأحرار الى فلاحين تابعين فى ظل صراع طبقى اتخذ اشكالا متعددة منها هروب الأقنان من اسيادهم ومنها الهبات المسلحة . ولم تستطع تلك الهبات أن تنجح بسبب التلقائية وعدم الوحدة ، ومع ذلك فقد أجبر الصراع الطبقى المتواصل لجماهير الفلاحين الأسياد الاقطاعيين أن يضعوا التزامات محددة نحو الأقنان حمتهم الى حد ما من الاستغلال الذى لا حدود له .

وكلما تطور المجتمع الاقطاعى كلما بدأ نمو القوى الطبقية يلعب دورا حاسما فى سرعة تطوره .

وساعد البناء السياسى للدولة الفرانكية على ابقاء الجماهير خاضعة . وكان لدى الأسياد الاقطاعيين الأغنياء جيشهم الخاص تحت تصرفهم وكان الدور الحاسم فى قمع الثورات تقوم به السلطة الملكية التى كانت تمثل مصالح الطبقة الاقطاعية فى مجموعها .

كييف روس :

وفيما بين السلاف الشرقيين كان لتطور الطبقات والدولة فى الفترة ما بين القرن السادس والقرن التاسع ملامح خاصة معينة . وقبل أن تقع اراضى السلاف الشرقيين تحت سيطرة حكم الامبراطورية الرومانية ظل البناء الاجتماعى متخلصا من النفوذ المباشر للعلاقات العبودية . فقد بدأ تفكك المجتمع البدائى القبلى عند السلاف فى وقت كانت قد تحولت فيه الى الاقطاعية

حتى الدول التى كانت تربطها بهـا علاقات واهية . وهكذا تخطت فترة الملكية العبودية فى التاريخ ودخلت تكوينا جديدا ـ هو الاقطاعية . وظهرت الطبقات الاقطاعية الأساسية فى القرنين التاسع والعاشر ، وأصبح الفلاحون الأحرار تابعين للملاك الاقطاعيين ويلقون منهم استغلالا وحشيا .

وفى القرن التاسع وضع البوليان وهم احد القبائل السلافية المعروف باسم الروس اسس نشوء دولة قوية مركزها كييف . وفى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر تكون حلف قبلى كبير بين السلاف الشرقيين فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر وأطلق اسم كييف روس على الدولة الجديدة . وكانت روس القديمة واحدة من اكبر واقوى دول العصور الوسطى ، وكان اقتصادها ينمو بشكل سريع ، وكانت قوتها تعتمد على الاستغلال الوحشى للفلاحين والحرفيين الذى ادى الى حدوث كثير من الثورات والاضطرابات .

وفى ذلك الوقت كان الأمراء الاقطاعيون يقومون بجباية جميع انواع الأجور وأجبر الفلاحون على دفع الأجر خدمة وعينا .

وتطورت الحرف وأصبحت تدريجيا متميزة عن الزراعة . وأصبح الحرفيون الذين ظلوا فى القرى فى وضع التابع للأمراء الاقطاعيين بينما اقام الآخرون خلف حيطان القلاع الاقطاعية مكونين جماعات مدنية ، وتطورت المدن وأصبح مراكز للحرف . ومن هذه الناحية كانت كييف روس متقدمة كثيرا عن أوروبا الغربية ، حيث ظهرت فيها المدن فى فترة متأخرة جدا ، وهى عصر الاقطاعية المتطورة . ويشهد التاريخ بوجود ٨٩ مدينة فى روس فى القرن الحادى عشر ذات ثقافة راقية . وعلى سبيل المثال نجد أن الحفريات الأثرية فى نوفجورود قد القت

الضوء على مئات من المواثيق مكتوبة بالحروف الروسية على لحـاء شجر البتولا .

وكان لروس القديمة صلات تجارية واسعة ، فقد الروس مع بلاد فى الشرق والغرب ، وكانوا يظهرون كثيرا الخلافة العربية وبيزنطة وبوهيميا وبولندا اسكنديناوا حيثكانوا يتاجرون فى الفراء والشمع والعسل والكتان والجواهر والأسلحة ، كما كانوا يجلبون الزينة والنبيذ والفواكه والتوابل .

وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أصبحت للدولة الروسية القديمة معترفا بها على أوسع نطاق التجارة الخارجية والعلاقات السياسية والثقافية بلاد أوروبا الغربية وبيزنطة .

وفى القرن الثانى عشر تسبب الغزو المنغولى فى الاقتصادى والسياسى لكييف روس ، وسهل الغزو نسبيا التفكك الاقطاعى واللامركزية . وساءت العلاقات فى آسيا فى مسالك مختلفة من طرق التطور كانت لكل بلد على حدة .

ظهور الاقطاعية فى آسيا :

يمكن أن يرجع ظهور العلاقات الاقطاعية فى الصين الثالث (بل وتشير بعض الوقائع الى تاريخ أبعد من كان ذلك هو وقت سقوط امبراطورية هان توحدت البلاد تحت حكم سلالة تشين الجديدة . مميزة للتطور الاقطاعى فى الصين وهو تأسيس دولة الفردى للأرض والمياه . وكان ذلك الاجراء ، مثل

الدولة اثنـــاء المرحلة العبودية ، مرتبطا بمركزة المشاريع العامه وتدعيم النظم الدفاعيـــة . وفى ذلك الوقت اقيمت الأميــال الأولى من الحائط العظيم .

وفى ظل حكم سوماليين (٢٦٥ ـــ ٢٩٠) أول امبراطور فى سلالة تشن ، ادخل نظـــام الحصص كتســانون . وطبقـــا لهـــذا القانون كان مما يعطى للفـــلاح يقسم الى قسمين . وكان المحصول الذى يعطيـــه الجزء الأول يستخدمه الفـــلاح لحاجاته الشخصية ، اما محصول الجزء الآخر فكان يعطى للدولة . وكان الفلاحون مسئولين أيضا على المحافظة على انتظام الرى ، والصرفه واقامة الجسور . وكان ذلك مثالا أصيلا للايجار بالخدمة ، بينما كان العمل بالسخرة التى كان ينتفع بهـــا ملاك الأرض هو الطابع المميز للنظام الاقطاعى فى أوروبا ، ولم تكن تمـــارس فى الصين الا نادرا . وتملك الأمراء الاقطاعيون مساحات قليلة من الأرض ، وكانت محاولاتهم لتحويل املاك الدولة الى ملكيتهم الخاصة تبوء بالفشل .

اثر ظهور العـــلاقات الاقطاعية فى الصين على تطور النظـــام الاقطاعى فى اليـــابان وكوريا ، وتخطى كلا البلدان المرحلة العبودية فى التاريخ ودخلا الشكل الاقطاعى بعد النظام المشاعى البـــدائى مباشرة . وفى اليـــابان بدات تتشكل العلاقات الاقطاعية فى القرن الرابع ، وفى ظل النفوذ الصينى بدات الاقطاعيـــة تظهر فى الهنـــد الصينيـــة فى القرن الخامس .

وفى الهنـــد وجـــد المثل النموذجى للنظـــام الاقطـــاعى الذى يحتفظ بمـــلامح من العبودية البدائيـــة حيث كان النفوذ الأجنبى منعدما . فالعبودية الأبوية وجدت هنـــاك جنبـــا الى جنب مع العـــديد من بقـــايا الجماعة القبليـــة البدائيـــة ، رغم أن الشكل الأول هو الذى كان سائدا .

وقـد ظهرت الاقطاعيـة فى الهنـد فى القرنين الخـامس والسادس ، وظلت الكوميونات الزراعيـة منعزلة وتكفى نفسـها بنفسها . وفى المدن عمل الحرفيون اساسا لاشباع حاجات ملاك العبيـد النبلاء . وكانت التجارة تتم أساسا بين المدن الكبيرة .

وكونت الدول التى ظهرت على أراضى بلاد العرب مجموعة ثالثة من البلدان اتخذ طريقها الى الاقطاعيـة ملامح مميزة . وفى خلال الألف سنة الأولى والثانية قبل الميلاد توالى سقوط الدول العبودية العربيـة القـديمة وظهرت دول جـديدة باستثناء مملكة حمـير (التى تشـغل أراضى اليمن الحاليـة) والتى بقيت حتى القـرن الحادى عشر بعـد الميلاد . ولم يبق مدة اطول من ذلك الا بعض الدويلات العبودية (مثل مكة والمدينـة) ، ومع ذلك فلم يتطور النظـام العبودي فى الدول العربيـة وبدأت الاقطاعيـة فى الظهور فى القرن السابع . وتطورت بين القبـائل الرحل على أساس تفكك الجماعة القبليـة البدائيـة .

وفى جميع البلاد الآسيوية ظهرت الاقطاعيـة فى ظروف كفـاح الجماهير المستميت ضـد حكم القـاهرين .

ظهور الاقطاعيـة فى أفريقيـا :

رغم أن ظهور وتطور العلاقات الاقطاعية فى بلاد شمال أفريقيـا وفى بلاد جنوب الصحراء كان يشبه كثيرا نفس العمليـة فى أوروبا وآسيا الا انه كانت له مع ذلك خصائصه المميزه .

وكانت الدولة الغانيـة من اقدم الدول الاقطاعيـة القديمة التى ظهرت فى حوالى القرن السابع بعـد الميلاد فى مكان يقع بين النيجر والسنغال . واستقر فى ذلك الاقليم شعوب من جماعة تتحـدثه

بلغــة المــاندا . ولم يتم الى الآن دراســة كاملة للتكوين الاجتماعي والاقتصادى للمجتمع الغــانى . ونحن نعلم انه على رأس الدولة وجد حكام اقطاعيون ، وانه حول نهــاية القرن الثــامن اصبحت سلطة الدولة مركزة فى ايدى اسرة سايس تونكارا . وتشهد حقيقة أن السلطة الملكيــة كانت موروثة تبعــا لخط الســلالة الأنثوى (من الخال الى ابن الأخت) على استمرار بعض بقــايا التكوين المشاعي البدائى . واستمرت ايضا عناصر من العلاقات العبودية ، فقد أسرت أعداد جــديدة من العبيــد عن طريق الحملات التى أرسلت الى الأراضى المجــاورة ، ومارس الحكام الغــانيون ذلك على أوسع نطــاق .

وبــدا التقسيم الاجتماعى للعمل اقل اهميــة بسبب ســيادة التجارة الخارجيــة على التجارة الداخليــة . وقامت التجــارة أساسا مع بلاد أفريقيــا الشماليــة ، وكان الملح والذهب مواد التصدير الأساسية .

واصبحت جينى والمدن الغانيــة الأخرى مراكز تجارية كبيرة . وساعد تطور المدن فى ذلك الجزء من أفريقيــا على نشر الثقافة ، وعلى الأخص اقامة المدارس .

٢ ـــ عصر الاقطاعيــة المتطورة

نمو الحرف والتجــارة :

من الظواهر المميزة للاقطاعيــة المتطورة ظهور المدن وتطورها كمراكز للحرف والتجــارة ومراكز للانتــاج السلعى . وقــد بدأ انفصال الحرف عن الزراعة فى المجتمع المشاعى البدائى واستمر طوال النظــام العبودى ، ثم توقفت تلك العمليــة بالانهيــار الاقتصادى للدول العبودية الذى ادى الى سقوطهــا . وعند نهاية

النظـــام العبودى لم تكن المدن تمثل مراكز للتجـــارة والحرف . وتعتبر بعض المدن فى آسيا وأفريقيـــا الشماليـــة استثناء من تلك القـــاعدة .

فتحت الاقطاعيـــة امكانيـــات جديدة أمام نمو القوى الانتاجية التى أدت بدورها الى تطور جديد للتقسيم الاجتماعى للعمل ـــ بين الزراعة والحرف المدنيـــة . وكانت تلك العمليـــة طويلة ومعقدة وكان من الممكن ملاحظتها بشكل واضح فى أوروبا الغربية ، وفى فرنسا بالذات . ولم يكن الفلاحون الفرنسيون يدفعون اتاوة للسيد من المنتجات الزراعيـــة وحـــدها ، وانما من البضائع الحرفيـــة أيضا ، وبالذات من الكتان والقماش .

وصاحب تقـــدم الزراعة ـــ انتشار المحراث الحـــديدى ونظام الزرعتين والثلاث زرعات ، ونمو تجـــارة الحدائق وزراعة العنب واصبحت الأسرة الفلاحيـــة تعطى وقتـــا اكبر للحـــرف ، بينمـــا تخصص عـــدد من أعضائها فى تجـــارة معينـــة .

وظهرت طائفة من الفلاحين تدفع كل أتاوتهـــا على شكل بضائع وعن طريق بيع الفائض من البضاعة للفـــلاحين الآخرين فى نفس الجماعة استطاعوا تجميع بعض النقود . وبذلك لم تعد التجـــارة هى الوسيلة الوحيـــدة لاعاشة الفلاح ، رغم أنه ظل ينتمى قانونيا لنفس الطبقـــة .

وكانت المرحلة الجـــديدة فى تطور الحـــرف اقـــامة روابط بين الحرفيين والسوق . فعندما كانت الاقطاعية فى مرحلتهـــا الأولى كان السيد يسمح للفلاحين الذين يتاجرون بأن يسوقوا بضائعهم فى الأسواق التى كانت تقـــام فى أيام الأجازات بالقرب من القلاع الكبيرة والكنائس . ولكن تلك العمليـــات التجارية لم يكن لهـــا أهميـــة اجتماعية نظراً لطبيعتهـــا العرضية .

وفى البداية كان الفصل بين الحرف والتجارة محدودا الاقطاعيـة . ومع تطور التخصص ، أصبح تسويق اكثر حدوثا . وبدأ الحرفى فى انتـاج جزء من بضائعه من السوق ، وحولهـا بذلك الى سلع ، وأصبح الحرف نفسه للسـلع .

وكان طبيعيـا أن الحرفى ذى الكفـاءة العالية لن يجد لبضائعه بين القرويين . فضلا من أن الاستغلال الاقطـاعى يتحول الى عائق شـديد لمهنتـه الرئيسية . هـذان شجعا الحرفى (الذى كان فلاحا حتى الآن من الناحية القانونية أن يترك سيده الى أماكن يكون فيهـا آمنا من القهر ، يجد سوقا سلعيا لبضائعه .

وبينما هرب بعض الحرفيين الفلاحين ، عقـد البعض اتفاقيـات مع أسيادهم الاقطاعيين . وطالمـا كان هؤلاء الى المـال فقـد وجـدوا من الأربح لهم أن يفرضوا عليـه من النقود . وفى البـداية سمح الأسياد للحرفيين بأن مقاطعتهم لفترة قصيرة ، فى وقت الشتاء الذى لا عمل وفى فترة اقامة الأسواق مثلا ، ثم امتدت بعد ذلك فترة

بالأمن . وغالبا ما استقروا الى جانب قلاع الملوك والدوقات والأساقفة أو قريبا من مراكز الادارة التى استجابت لاحتياجاتهم . وفضل الأقنان الهاربون أن يستقروا الى جانب الكنائس الكبيرة والأديرة التى كانت محصنة مثل القلاع .

وأحيانا كان هؤلاء الفلاحين الذين تركوا قراهم يستقرون الى جانب نهر أو طريق تجارى تقف عنده القوافل . فهنا كثيرا ما كان المسافرون من أماكن بعيدة يبادلون بضائعهم ويشترون بضائع الحرفيين المحليين . وكان الفلاحون يستأجرون للقيام بأعمال شاذة مثل حمل البضائع وأعمال النوتية .. لخ .

حرر هؤلاء الفلاحون (وكانوا أساسا اقنانا) انفسهم تدريجيا من القهر الاقطاعى ، لأنه فى تلك الحالة كان كل من الملك والسيد له مصلحة فى اجتذاب العمل .

وعندما نجح الفلاحون فى ادخار مبلغ ضرورى من النقود اشتروا حريتهم . وفى بعض الحالات توقفوا ببساطة عن دفع الاتاوة المالية ، ولم يعودوا الى قراهم ، ولم يكن فى سلطة السيد الاقطاعى أن يعيدهم . وبهذه الطريقة أصبح بعض الأقنان أحرارا .

واتحد جميع الحرفيين فى العصور الوسطى فى نقابات للحرفيين تبعا للصنعة التى يمارسونها وكانت هذه النقابات تقوم على أساس قواعد صارمة تتعلق بحجم الجزء المنتج ونوع المواد الخام المستعملة الخ . ووضعوا قواعد أيضا لدرجة الانتاج وكان كل حرفى يقتصر — كقاعدة — على اثنين من الصناع واثنين من الصبيان .

وحددت قواعد نقابة الحرميين ايضا الأجور التي تدفع للصناع واسعار البضائع المنتجة وكانت هنساك أيضا قوانين صارمة بشأن تسويق البضائع .

وادت العلاقات التجارية بين ايطاليا وجنوب فرنسا من ناحية وبين البيزنطيين وبلاد المشرق (البلدان الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط) من ناحية اخرى ، ادت الى تطور بعض المراكز المدنية مثل البندقية وجنوا وبيزا ونابلى فى ايطاليا ومارسيليا واورليه وناربون ومونتبيلييه فى فرنسا وعدد من المدن الأخرى . وقد ظهرت المدن فى فرنسا وايطاليا كمراكز للتجارة والحرف فى أوائل القرن الثامن وحدثت هذه العملية فى المانيا وانجلترا فى القرنين العاشر والحادى عشر .

وقد سبق أن ذكرنا أن مدينة كييف فى القرنين العاشر والحادى عشر كانت من أكبر المدن الروسية . واشتهرت أيضا نوفوجورد وهى مركز آخر ازدهرت فيه الحرف والتجارة وكانت تشير نجوف وسمولنسك وبولتسك مراكز اقتصادية هامة أخرى فى روس القديمة .

وفى القرن الثانى عشر ظهرت موسكو كمدينة ومن منتصف القرن الثانى عشر نمت موسكو بسرعة وفى القرن الثالث عشر اصبحت عاصمة لمقاطعة موسكو .

وقد أدى المزيد من تقسيم العمل الى خلق طبقة اجتماعية لم تكن تساهم فى عملية الانتاج ولكن عملها كان قاصراً على تبادل المنتجات ـــ طبقة التجار . فكانوا يشترون البضائع من المنتجين ويبيعونها فى السوق .

وظهرت بالتدريج طبقة اجتماعية أخرى ـــ فقراء الريف وهى تضم الصبيان والحرفيين المعسرين والصعاليك الخ . وعارضت

الطبقات العليا فى المدينة والتى تضم التجار والمرابين والحرفيين الأثرياء وارستقراطية الاقطاع فى المدن .

اشكال جديدة للدولة ، ظهور الملكية الاقطاعية :

ان الظروف الاجتماعية المتغيرة التى نجمت عن تطور العلاقات السلعية والمالية أجبرت الطبقة الاقطاعية الحاكمة على تغيير اشكال السلطة السياسية .

وقد اتخذت الدولة الاقطاعية مظهرا جديدا باتجاهها نحو المركزية التى تقوم على أساس التوحيد الاقتصادى للأقاليم الواسعة . وكان التوحيد السياسى وتكوين دول مركزية ، ظاهرة تاريخية هامة كامنة فى عصر الاقطاعية المتطورة .

هذه العملية تبعها تغير فى البناء السياسى للدولة واتضحت بشكل كامل فى انجلترا وفرنسا . ففى القرن العشرين اتى الصراع الطبقى فى فرنسا بنتائج اكثر فعالية عن اى بلد آخر بينما كانت الأشكال السياسية اكثر وضوحا عن أى مكان آخر .

وكانت المركزية فى فرنسا منذ القرن الثانى عشر حتى القرن الخامس عشر مصحوبة بتدعيم تدريجى للسلطة الملكية . وامتدت سلطة الملوك الفرنسيين على جميع أمراء الاقطاع الأغنياء فى البلاد واخذوا يتمتعون بتأييد واسع من اتباع الآخرين الذين عانوا طويلا من السادة الاقطاعيين .

وقد لعبت المدينة وسكانها دورا بالغ الأهمية فى عملية توحيد فرنسا سياسيا وفى تدعيم سلطة الملك . وكان تأمين الطرق التجارية وانشاء علاقات ثابتة للسوق فى داخل البلاد موضع اهتمام

الحرفيين والتجار وكانوا على استعداد لتأييد سلطة الملك الناشئة ضـــد اولئك الأمراء الذين انتهكوا النظـــام القائم بما يثيرونه من المنازعات والحروب وأعمـــال السلب .

وفى سبيل تمثيل مصالح الطبقة الاقطاعية الحاكمة وجد الملك انه من المفيـــد تأييـــد تنميـــة التجـــارة والصناعات الحرفيـــة فى المدن ولعب بهذه الطريقة دورا تقدميـــا فى تاريخ هـــذه الفترة .

ومع ان الســـلطة المركزية ازدادت قوة فقـــد اســـتمر الملوك الفرنسيون فى دعوة المجلس الاقطـــاعى فى كل مرة يتطلب تسوية مسألة هامة أخذ موافقة أمراء الاقطاع الأغنيـــاء وأمراء الكنيســة .

ومن القرن الثانى عشر فصاعدا ، كان ممثلو الطبقـــات الموسرة فى المدن الكبرى يدعون للمجلس . ومنـــذ أوائل القرن الرابع عشر (حكم فيليب الرابع) أصبحت جلسات هـــذا المجلس منتظمة وعرف باسم « الجمعيـــة العمومية » لتمييز هـــذه الهيئـــة عن مجالس الأقاليم التي كانت تعقـــد بشكل منفرد بالنسبة للأقاليم الشمالية من البـــلاد .

وظهر تمثيل القطاعات الاجتماعيـــة فى بلدان أوروبيـــة أخرى فى انجلترا مثلا ، حيث دخل البرلـــان مرحلة جديدة فى تطور الدولة الاقطاعية . وكانت الملكيـــة الجديدة هى الشكل السياسى للسيطرة الاقطاعيـــة وكانت تتفق مع المرحلة الجـــديدة من مراحل تطـــور القوى الانتاجيـــة وعلاقات الانتـــاج القائمة فى المجتمع الاقطاعى الذى نشأ عن نمو المدن وتطور الحرف والتجارة ، هـــذا الشـــكل الجديد للدولة الاقطاعية عكس تكالب الطبقـــة الحاكمة على أن تزيد من استغلال الجماهير .

الدولة الروسية المركزية :

تكونت الدولة الروسية المركزية حوالى نهـاية القرن الثـالث عشر ورافق توحيـد الدولة الروسية الاطاحة بحكم المغول والتتار الذى عرقل تطور القوى الانتاجية فى روسيا منـذ القرن الثـالث عشر وأصبحت موسكو عاصمة الدولة الروسية . وأدى القضـاء على التفكك الاقطاعى الى المزيد من تطور البلاد اقتصاديا وثقافيا . .

وظلت الدولة الروسية بعـد توحيـدها ملكيـة اقطاعية على راسها الدوق العظيم وتدريجيا أصبح مجلس البويار لأمراء الأرض الأغنيـاء (مستشارى الدوق) مؤسسة دائمة وتكونت الهيئـات الادارية التى اكتسبت فى القـرن السادس عشر طابع الوزارات الدائمة وتقلصت امتيازات أمراء الأرض الاقطاعيين ولم يعد يسمح لهم بالاشتراك فى مناقشة وحـل مشاكل الدولة التى كانت قـد أصبحت من اختصاص نواب الدوق .

وفى منتصف القرن السادس عشر بدأت تتطور فى روسيا ملكية تمثل الفئـة العليـا للمجتمع . وفى عام ١٥٣٩ تأسست جمعيـة وطنيـة عرفت باسم زامسكى سوبر . وفى البداية جاء أعضاؤها من البويار ونبلاء موسـكو ، وعندما دعيت للانعقـاد فى ١٥٦٦ كانت تضم أيضا ممثلين عن التجـار والحرفيين .

وقـد أصبحت الدولة الروسـية قوية بشكل خاص فى النصف الثـانى من القرن السادس عشر اثناء حكم ايفان الرابع الملقب بالرهيب (١٥٣٠ — ١٥٨٤) وسرعان بعد توليـه العرش ما اتخذ ايفان الرابع لنفسه لقب « قيصر جميع روسـيا » ، وفى نهـاية حكمه امتـدت الدولة الروسية من بحـر البلطيق فى الغرب الى نهـر نيس فى سـيبيريا ومن المحيط القطبى الشـمالى حتى تلال القوقاز وبحـر قزوين .

تطور النظـــام الاقطاعى فى آســيا :

يرجع تاريخ عصر الاقطاع المتطور فى الصين الى القرن الثــامن عصر امبراطورية تانج . وتميزت هـــذه الفترة بتغير من شــكل اقطاعى فى ملكيـــة الأرض الى شكل آخر . واستبدل نظام تقسيم الدولة للأرض بنظـــام الولايات الاقطاعيـــة الكبيرة . فتملك أولا ملاك الأرض الأغنيـــاء ثم الارستقراطية الاقطاعيـــة المتوســـطة والصغيرة على مســـاحات من الأرض اكبر واكبر وبذلك حرمت الفلاحين من قطع أرضهم وتقوض الاقتصاد الطبيعى السائد والذى كان يتميز بنظـــام التقسيم وارتبـــاط الزراعة والحـــرف وتطور الانتـــاج السلعى واصبحت المدن القديمة مراكز للحرف والتجارة . وكان المجتمع الريفى خاضعا لتقسيمات طبقيـــة حادة من الملكيـــة بين الفلاحين . وحوالى نهـــاية القرن الثامن اعترف رسميا بالأرض التى كانت فى حوزة الأمراء الاقطاعيين كملكيـــة لهم .

وكانت الكنيســـة البوذية أغنى من يمتلك أرضا فى الصين وفى منتصف القرن التاسع امتلكت المعـــابد البوذية ٦٠ مليون هكتـــار من الأرض .

وأدى الانتقـــال الى أشكال جـــديدة من الملكيـــة الاقطاعيـــة الى التفكك السياسى فى البلاد الأمر الذى أزداد بشكل كبير بعـــد سقوط امبراطورية تانج فى أوائل القرن العـــاشر . ولكن نظـــام الدولة الصينيـــة أبقى على عنـــاصر المركزية التى ســـاعدته على الاحتفاظ بوحدة سياسية أقوى من تلك التى وجدت فى نفس الوقت فى أوروبا ، وكان هـــذا يرجع الى حـــد كبير الى تلك العـــوامل الهـــامة فى تلك الفترة كما كانت فى العصر العبودى ـــ الحـــاجة الى مشروعات عامة تتعلق باصلاح وتحسين السدود والجســـور وأنظمة الرى ككل ومثل هـــذه المشروعات لا يمكن تحقيقهـــا على مســـتوى محلى .

والهند مثل الصين قد طورت الاقطاع فى فترة مبكرة نسبيا (فى القرن السابع) وكانت الأراضى الاقطاعية مقسمة الى قسمين : قسم فى حوزة الأمراء الاقطاعيين تسلموه نظير الخدمة العسكرية التى يؤدونها للأمراء (المهراجات) واصبحت هذه الأراضى — كقاعدة — وراثية ، والقسم الآخر ملك لأمراء الاقطاع دون أى شرط أو حدود وكان المهراجات أنفسهم يمتلكون مساحات واسعة من الأرض .

والأرض التى منحت بواسطة المهرجانات كانت تنزع ملكيتها فى الغالب من كوميونات القرية والكوميونات نفسها غالبا ما كانت ملكية خاصة .

ان ركود كوميون القرية الهندية كان أيضا عاملا هاما فى زيادة حدة الاستغلال الاقطاعى .

ويتميز المجتمع الهندى بشكل خاص بالجماعات والسلالات التى تكونت فى العصر العبودى وبقيت حتى هذا اليوم — وكانت السلالات توجد الجماعات المختلفة تبعا لأصلها أو تجارتها مما جعل نظام السلالات شكلا من أشكال التقسيم الاجتماعى للعمل . هذا النظام قد خدم دائما ولا يزال يخدم مصالح الطبقات المستغلة .

والدولة الاقطاعية التى ظهرت فى الجزيرة العربية كانت تمتاز بأن المجتمع الدينى كان نواة التوحيد السياسى . ودخل الاسلام الى الجزيرة العربية على يد محمد — احد أعضاء الأسرة الهاشمية من قبيلة قريش (٥٧٠ — ٦٣٢) تقريبا .

دول القارة الأفريقية :

شاهدت هذه الفترة تطور الدولة الاقطاعية فى القارة الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى .

الذى احتلته يوما نتيجة لغارات قبائل سوسو ،
مكانها تدريجيا مالى التى كان يقطنها شعوب المالينك .
القرن الحادي عشر كانت امارة مالى الصغيرة تقع بين
وباكو وقد ساهمت الزراعة وبالذات زراعة القطن وأيضا
الذهب والحرف والتجارة فى خلق القوة الناهضة لدولة
وفى ١٢٤٠ هزم صانديانا (مارى جاتا) أحد حكام مالى ،
الغانى ودمر عاصمة غانا .

اواخر القرن الثالث عشر أصبحت عاصمة دولة مالى ، وهى
مالى أيضا ، مركزا تجاريا هاما ، ونشأت روابط تجارية
مع بلدان جنوب البحر الابيض المتوسط .

النصف الأول من القرن السابع عشر أدى النشاط العدائى
سونجهاى وفيولب وبامبارا الى تقويض دولة مالى ، ثم
سقوطها وظهرت دولة اقطاعية أخرى ، فى ذلك الوقت ،
الجزء الشرقى من السودان الغربى أسستها قبائل سونجهاى .

تاريخ تأسيس أول دولة لقبائل سونجهاى الى القرنين
عشر والخامس عشر . وفى القرن السادس عشر امتدت
قبائل سونجهاى من النيجر الأعلى حتى شلالات بوسا
منطقة الصحراء فى الشمال حتى أراضى بوبو وموسى
جنوب . وفى سونجهاى ، كما فى دول سودانية أخرى ،
عمل الرق دورا هاما فى الانتاج الاجتماعى . وكان العبيد
ارضا فى الغالب وكأقنان الأرض كانوا يجبرون على
الايجار نوعا . وقد حصل أسلافهم الذين أطلق عليهم
ورانى على حقوق معينة فى الجيلين الثانى والثالث فلم يعد
رغم انه كان ينظر اليهم كعبيد . وكثيرا ما هب رقيق
والدياجورانى والعبيد معا ضد الذين يقهرونهم .

وشاهد مطلع القرن السادس عشر أول صدام بين الحكام من قبائل سونجهاى والسلاطنة المراكشيين استمرت طوال القرن . ومع أن حكام سونجهاى كسبوا الجولة الأخيرة فان الضعف كان قد انتاب الدولة الى درجة أدت لانهيارها فى حوالى نهاية القرن السابع عشر.

وكان القرن السابع عشر عصر ازدهار بالنسبة لدولة « بنين » وهى جزء من جنوب نيجيريا الحالية ، وقد تطورت هناك على مدى قرون ثقافة غنية خلقها شعوب يوربا وايدو .

وكانت الكونغو هى الأخرى احدى الدول الاقطاعية الكبرى وحين كانت دولة الكونغو فى ذروتها ، من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر ، امتدت أراضيها حتى نهر كوانجو فى الشرق ونهر كوانزا فى الجنوب والمحيط الأطلنطى فى الغرب وحوالى ٥٠٠ — ٦٠٠ كيلو مترا شمال نهر الكونغو . وجميع هذه المناطق كان يسكنها الباكونجوم والباسندى والمايوب .. الخ . وكانت لغة الكيشيكونجو هى اللغة الرسمية لتلك البلاد .

وقد اعتمد الانتاج الاجتماعى الى حد كبير على عمل العبيد فكان العبيد يقومون بأشق الأعمال وتطورت الحرف المختلفة واتسعت التجارة وقامت علاقات اجتماعية من نوع مماثل فى الدول المجاورة : انجولا ومونوموتابا (الى الجنوب والجنوب الشرقى من الكونغو) .

ايدلوجية وثقافة المجتمع الاقطاعى ، الدين والكنيسة :

لم يكن الاستغلال الاقتصادى والقهر السياسى هما الوسيلتان الوحيدتان لتدعيم سلطة الطبقة الاقطاعية على الشعب العامل . واستخدمت الأيدولوجية الى حد كبير ولعبت الكنيسة دورا متميزا

فى الايدولوجيـــة الاقطاعية . وقـــد اثر النفوذ القوى للكنيســـة تاثيرا خطيرا على كافة مناحى مجالات الثقـــافة الروحيـــة لمجتمع العصور الوســـطى .

وتعتبر الكاثوليكيـــة الرومانية مثلا كلاسيكيا للدور الذى لعبته الكنيسة فى المجتمع الاقطاعى . وقـــد صارت المسيحية هى الدين الرسمى لملاك العبيـــد فى عصر اباطرة الرومان وجعلت الطبقـــة الحاكمة من امراء الاقطاع فى العصور الوسطى من المسيحية حجر الزاوية فى ايدلوجيتهم . وفى القرن الحادى عشر بعـــد ان انشقت الكنيسة المسيحية نهائيا الى شرقيـــة وغربيـــة واصبحت الكنيسة الكاثوليكية الرومانيـــة أو الغربيـــة السند الأيديولوجى للنظـــام الاقطاعى فى أوروبا الغربيـــة .

وحتى تركيب الكنيسة الكاثوليكيـــة اقتفى اثر النظام الاقطاعى الرسمى للتبعيـــة الصارمة وعلى راسها البـــابا واساطين روما ومن بعدهم الكرادلة والمطـــارنة والأساقفة .. الخ . حتى رعاة الكنيسة والقساوسة الذين حافظوا على اتصالهم المباشربالشعب .

وكانت الكنيسة الكاثوليكيـــة نفسها من ملاك الأرض الاقطاعيين الاقوياء . وفى اوروبا كانت اكبر الأملاك فى حوزة دير القـــديس نروند فى جنوب الأراضى الواطئـــة ، وكانت كاتدرائيـــة نوتردام فى باريس تملك اراض زراعيـــة ومزارع كروم وغـــابات ومراعى تربى عليهـــا قطعان لا حصر لهـــا من الخيول والمـــاشية والمعيز والأغنـــام والخنازير . وكانت العشور ــ عشر ما ينتجه الفلاح ــ تدفع بانتظـــام للكنيسة .

فالاستغلال الوحشى للفـــلاحين والحرفيين كان مصـــدر ثروة الكنيســـة .

وتحمل الثقافة الأوروبيـــة الغربيـــة فى أوائل العصور الوسطى وفى فترة الاقطاعية المتطورة ، آثارا واضحة للنفوذ الكهنوتى .

وحل علم اللاهوت الكاثوليكى محل الفلسفة القديمة والعـــلوم الرياضة والطبيعية التى كانت ترتبط به ارتباطا وثيقـــا . واقتصر الأدب على الكتـــابة المقدسة والتاريخ على كتابة التقاويم الخاصة بالأديرة ووضع الشعر والموسيقى والفن فى خدمة الكنيســـة التى احتكرت أيضا نظام التعليم بأكمله .

ومهمـــا يكن فانه من الخطـــأ ان يعتقـــد أن الاحتكار الروحى للكنيسة قـــد نشأ بطريقة سلمية ـــ فالكنيسة دخلت الحياة الروحية للمجتمع نتيجة للصراع الوحشى ضـــد جميع المفـــكرين الاحـــرار فى ذلك الوقت ، ضـــد الجماهير . واضطهدت الكنيسة الكاثوليكية (شأن اى كنيسة أخرى) جميع أنصار المعتقـــدات والأســـاطير الشعبية المعـــادية للكهنوت .

وفى تاريخ عصر الاقطاع كان الاسلام دينـــا آخر واسع الانتشار فقـــد وضع مجتمع الدين الاسلامى اساسا لتطور الدولة الاقطاعية فى الجزيرة العربيـــة وبـــدأ الاسلام يحكم الحياة الروحية للمجتمع الاقطاعي فى الأقاليم التي فتحها العرب . وبعد ذلك تغلغل فى كثير من البلدان الآسيوية والأفريقيـــة الأخرى وفى أوروبا بدرجة أقل .

ويمكن وضع البوذية بسبب تاثيرها الضخـــم ، بين الديـــانات العالميـــة البارزة ، وقـــد ظهرت هـــذه التعاليم التى تحمل اسم مؤسسها الاسطورى ، أول ما ظهرت فى الهنـــد القديمة حيث قامت على أساس المعتقـــدات الأساسية لمذهب البراهمة واصبحت الدين الرسمى لطبقة ملاك العبيـــد .

وعندما ظهر النظام الاقطاعى انسحبت البوذية الطريق تدريجيا للهندوسية ولكنها فى نفس الوقت احرزت تقوما فى البلدان المجاورة ففى الصين مارس الناس البوذية لأول مرة فى القرن الاول الميلادى وازدادت قوة بشكل خاص فيما بين القرنين الرابع والسابع ، وفى النهاية انسحبت الطريق للكونفوشية ولكنها الى حد معين كانت قاصرة على حدود البلاد ، ثم واصلت زحفها الى كوريا واليابان وتايلاند وبورما وكمبوديا القديمة وبلدان اخرى من الهند الصينية ثم توغلت فى سيلان ونيبال .

وطبقا للتعاليم البوذية فان كل الواقع المرئى ليس الا مظهرا وهميا لجوهر روحى مبهم يوجد فى حالة من الهدوء التام — نرفانا . هذا الجوهر يتفق مع الفكرة المتمثلة للآلهة فى الديانات الأخرى . فالحياة هى مظهر للشر والعذاب ويمكن ادراك الخلاص بالوصول تدريجيا الى حالة النرفانا التى تسمح بنسيان الواقع الخارجى . وأخيرا فالتعاليم البوذية كانت تكملة للمفاهيم عن الفردوس والعالم السفلى الذى جعل هذه الديانة اكثر منها لدى الجماهير وبذلك دعمت دورها كدين رسمى للطبقة الاقطاعية يدعو الى تبرير عدم المساواة الاجتماعية .

تطور الأيديولوجية المعادية للاقطاع والهرطقة الدينية :

ان سيطرة الأفكار المثالية والدينية (المسحية فى اوروبا والاسلام والبوذية فى آسيا وافريقيا) لم يمنع وجود تيارات ايديولوجية متناقضة وعدائية .

ولقد بذلت العناصر التقدمية فى المجتمع الاقطاعى جهدها رغم الاضطهاد العنيف لتدخل المفاهيم والأفكار المادية ومن ثم تميز

العصر الاقطاعى ، مثل العصور التاريخيـة السـالفة ، بصراع ايديولوجي عنيف .

وقد استعار ايديولوجيو الكاثوليك فى أوروبا الغربيـة امثـال توما الاكوينى وغيره تعاليم بعض فلاسفة العـالم القديم المثاليين وبتزييف نظريات ارسطو ، ابتدعوا مفاهيم مثالية دينية للعصور الوسطى وفى نفس الوقت عمد الفلاسفة العرب الى ابراز الأفكار الموروثة عن المادية فى العصر القديم وكان ابن سينا وابن رشد من أعظم الفلاسفة المـاديين تقدما فى ذلك العصر وكانت آراء ابن رشد تتفق فى الكثير مع نظريات ديمقريطس . فقـد نظر الى المـادة كحقيقة موضوعية واعتبر الذرات جزيئات مادية . واعترف بوجود حكمة شاملة موازية (للروح الغائية) للفرد والتى يتم وحدتهما فى لحظة المعرفة . وان رأيه الديمقراطى فى المساواة الذهنية بين الناس بغض النظر عن وصفهم الاجتماعى ، لهو مظهر هام من تعاليمه .

وقد نقل مفكرو اوروبا الغربية التقدميون آراء ابن رشد ولاءموها مع الظروف الاجتماعية الاقتصادية والتقاليد المـادية الجارية فى أوروبا فى ذلك العصر واصبحت الأفكار المـادية سلاحا خطيرا فى الصراع الطبقى الأيديولوجى المعادى للاقطاعية فى يد جميع العناصر التقدمية فى المجتمع .

وكان مذهب الاسمية أول اتجـاه مادى فى فلسـفة العصور الوسطى فى القرن الثالث عشر واعترف دنس سكوتس وأوكام من اتباعها من الفلاسفة الانجليز بالطبيعة المـادية للعالم واعتـبروا الطبيعة هى الأصل كما عارضا المفهوم المثالى الذى يؤكد اسبقية العقل كمـا اعترفا أيضا بامكانية اكتشاف العالم . ومهما يكن فقد كانت هـذه مادية ميكانيكية غير جدلية . ومن نهاية القرن الثالث

عشر وحتى القرن الخامس عشر زادت العناصر التى تخضع للآراء المثالية فى مذهب الاسمية .

وظهرت المعارضة المعـــادية للاقطاع ليس فقط بين سكان المدن الموسرين ولكن ايضا بين الفلاحين والعامة من سكان المدن وكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصراع ضد سيطرة الكنيســة .

ولما كان هذا الصراع هو صراع طبقى ايديولوجى فقد صاحب الهرطقة فى الغالب هبات مسلحة معادية للاقطاع وكانت المعارضة الريفية تتضح بعض الأحيان فى تعاليم غامضة موجهة ضد سيطرة الكنيســـة .

هذا الصراع الذى حدث فى العصور الوسطى ضد المثالية والدين وضع الأساس لظهور المـــادية والالحادية فى العصر الحديث .

صراع الجماهير المعادى للاقطاع :

اثار الاستغلال الاقطاعى مقاومة عنيفـــة من جانب الفلاحين والحرفيين وهيأ التناقض بين الطابع المستقل لاقتصاد المنتج الصغير وتبعيته غير الاقتصادية للارستقراطية الاقطاعية أساسا للصراع الطبقى العنيف المعادى للاقطاع من جانب الطبقات المقهورة .

وتوقف شكل الصراع الطبقى على عدد من العوامل التاريخيـــة المحددة — مستوى تطور القوى الانتاجية ونوع علاقات الانتـــاج والمؤسسات الادارية والسياسية .

وتميزت كل فترة من هـــذه الفترات الثـــلاث فى تطور المجتمع الاقطاعى بسماتهـــا الخاصة بهـــا والمتعلقة بأســـباب وأهدافه واشكال الصراع الطبقى الذى شنته الجماهير وأساسا الفلاحون

ضد المستغلين . فالرغبة فى التحرر من العبودية واشكال التبعية الاقطاعية الأخرى كانت أمرا مألوفا فى الصراع الطبقى أثناء العصور الوسطى ولكن تحت ظروف معينة فقط أثناء تفسخ النظام الاقطاعى،

يمكن للصراع الطبقى ان يؤدى الى انهيـــار النظام الاقطاعى . ولا زالت العلاقات الاقطاعية ، فى مرحلة مبكرة من تطورها ، تعمل على تشجيع تطور القوى الانتاجيـــة .

وكما ذكرنا من قبــل فان العصور الوسطى الأولى كانت تتميز بصراع الفلاحين ضد العبودية وتميزت الفترة الثانية من تطور الاقطاع ، والتى ترتبط بظهور المدن وتطور العـــلاقات السلعية والنقدية ، بظهور احداث عاصفة . ففى أوروبا شنت المدن صراعا وحشـــيا ضد الحكام مطالبة بحقها فى الحكم الذاتى وتخفيف وتنظيم الالتزامات الاقطاعيـــة والضرائب ، ثـــم اعقب ذلك صراع بين « أمهات المدن » ونقابات الحرفيين التى كانت تناضل من أجـــل المشـــاركة فى ادارة المـــدن . وأخيرا كان هنـــاك الصراع بين ارستقراطية المدينة وزعماء نقابات الحرفيين من ناحية والصناع يؤيدهم فقراز سكان المدينة (العامة) من ناحية أخرى .

وغالبا ما كسب الصراع الطبقى فى القرى تأييد فقراء سكان المدن وزاد هـــذا من حدة التناقضات الاجتماعية ونجم عنه موجة من الهبات الفلاحية الخطيرة ساندهـــا فقراء ســـكان المدن . وشاعت فى أرجاء أوروبا فى القرن الثالث عشر والرابع عشر : « ثورة الرعاة » فى ١٢٥١ والحـــركة الشعبية ١٣٢٠ فى جنوب الأراضى الواطئة وفرنسا وحركة دلكينو فى ايطاليا (١٣٠٥ ــ ١٣٠٧) وهبة ايتين مارسيل واليعاقبة فى فرنسا (١٣٥٧ ــ ١٣٥٨) ، وثورة وات تايلر فى انجلترا (١٣٨١) والحركة الثورية التى قام بهـــا الهوسيت فى بوهيميا (فى بداية القرن الخامس عشر) .

واثناء العصر الاقطاعى كانت هناك شعبية خطيرة فى كثير من البلدان الأسيوية : الحركة الشعبية فىبغداد مقر الخلافة الاسلامية (القرنين الثامن والتاسع) وثورة حاجى مول التى قام بهـــا فقراء دلهى (فى بداية القرن الرابع عشر) ، والحرب الفلاحية (القرن التاسع) وحركة المنديل الأحمر (القرن الرابع عشر) فى الصين والثورات التى حـــدثت فى كوريا (فى ١٢٣٣ وفى أواخــر القرن الخامس عشر) وسلسة الهبات التى وقعت فى اليابان (القرنين الخامس عشر والسادس عشر) والحروب الفلاحية التى قادها بلوتونكوف (فى بداية القرن السابع عشر) ورازين (الربع الثالث من القرن السابع عشر) فى روسيا .. الخ .

وكان لكل حركة من هـــذه الحركات سماتها المميزة الخاصة .

وقد ساعدت الهبات الفلاحية التى كانت تهدف الى التخطيط من قسوة حياة الجماهير العـــاملة على تطور القوى الانتاجيـــة الاقطاعية ، ومن ثم فالدور الذى لعبته كان دورا تقدميا وثوريا . ونادرا ما كان الفلاحون يطالبون بغير الحرية الشخصية وحقهم فى امتلاك الأرض التى يزرعونها . وفى عدد من الهبات لم يجرؤ الفـــلاحون على المطالبـــة بالغـــاء جميع الالتزامات الاقطاعيـــة والايجارات بل قصروا مطالبهم على التقليل من بعض واجباتهم . ولقـــد اخطأوا فى تصورهم ان مطالبهم المحدودة قد تلقى قبولا من الطبقـــة الحاكمة .

ان قصور التنظيم وتفكك الثوار ــ نتيجة للطابع المميز لعمل الفلاحين وكذلك النقص فى وجود القـــادة ذوى التجربة ــ أدى بشكل لا يتغير الى فشل الحركات التى قام بهـــا الفلاحون .

٣ ــ مرحلة تفكك الاقطاع (نشأة الرأسمالية)

احتفظت السمات المميزة لأسلوب الانتاج الاقطاعي بأهميتها في المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل تطور الاقطاع ، ولكنها تأثرت كثيرا بظهور الرأسمالية . وترجع بداية هذه المرحلة التاريخية الى القرن السادس عشر ولو انه يمكن تبين جذور الانتاج الرأسمالي في بعض المدن الايطالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

تغيرات اقتصادية ــ متطلبات ظهور رأس المال وتراكمه الأولى :

لقد تطورت القوى الانتاجية في المرحلة الثالثة للعصور الوسطى الى المدى الذى بدات تظهر فيه العلاقات الرأسمالية في أعماق تركيب الاقتصاد الاقطاعي . وظهرت طبقة جديدة من المستغلين ــ البرجوازية التي تملك وسائل وأدوات الانتاج وطبقة جديدة من المستغلين ــ العمال الاجراء او البروليتاريا التي اضطرت حين حرمت من هذه الوسائل ، لأن تبيع قوة عملها للرأسماليين . واجبر الرأسمالي العامل الأجير على أن يؤدى عملا أكبر مما يحتاجه لكي يعول نفسه ويعول اسرته . وكان العمل الفائض الذى يحققه يذهب ليخلق فائض القيمة التي يستحوذ عليها الرأسمالي ، وهذا الاستحواذ على فائض القيمة هو شكل مميز للاستغلال الرأسمالي وهو القانون الأساسي لأسلوب الانتاج الرأسمالي .

ان تطور القوى الانتاجية كان المتطلب الأساسي لتكوين الرأسمالية داخل النظام الاقطاعي .

حين اخترعت أفران الصهر في القرن الخامس عشر استخدمت

طارة تدار بقوة المـــاء لتقوم بعملية النفخ ميكانيكيا . وحتى اختراع افران الصهر كان المنفاخ اليدوى فقط قادرا على تحويل المعدن الى حالة لدنة . وقد مكن الاختراع من تحويل المعدن الى حالة السيولة الأمر الذى أصبح معه ممكنا تشكيل ادوات مختلفة من الحديد • وبدأ انتاج الصلب وأعقبه ادخال آلات الخراطة والثقب والطحن نتيجة لتحسين الأدوات .

وفى مجال انتاج الأقمشة افسحت الأنوال الراسمالية البدائية الطريق لنوع من الأنوال الأفقية . وقد اخترعت ساعة الجيب التى تدور على أســـاس الحـــركة الميكانيكية للزنبرك فى القرن الخامس عشر وحلت محل الساعات البدائية التى عرفت منذ القرن الثانى عشر .

وبانتاج القطع المعدنية تمكن الانسان من بناء سفن شراعيـــة حديثة قادرة على ان تقوم برحلات طويلة وحمل حمولات ثقيلة . وادخل تعديل على البوصلة . واخترعت آلة الطباعة .

وادى تحســـين الأدوات الزراعية الى تسهيل عمـــل القوى الانتاجية فى الزراعة ولكن بخطى ابطـــأ من الصناعة . واتسعت المساحات التى تزرع بالحبوب وزاد الانتاج الزراعى وأجرى تحسين فى تفليح الأرض . وجنبا الى جنب مع انتشار نظام الدورة الثلاثية ادخل نظام الدورة المتعددة واعادة زراعة الأراضى البور .

ومع نمو المدن ازداد الطلب على المواد الغذائية وادى التقدم الصناعى الى زيادة الطلب على الصوف والجلود والكتان والقنب الهندى والمنتجات الزراعية الأخرى .

وفى المرحلة النهائية من العصور الوسطى تمت خطوات جبارة

نحو تربية الماشية وزراعة البساتين وزراعة الحدائق والكروم وانتاج النبيذ بشكل خاص .

وبدأت تتخصص مناطق ومقاطعات معينة فى انتاج محاصيل خاصة . وظهرت الزراعة التجارية فى المناطق المناسبة . فمثلا تخصصت الأراضى الواطئة فى تربية الماشية وتصدير منتجات الألبان واهتمت مناطق معينة فى أسبانيا بتربية اغنام المارينو وتصدير الصوف الخ .

وأدى نمو الزراعة والصناعات المختلفة الى التفرقة بشكل كبير بين الصناعة والزراعة ، والى ظهور مجالات جديدة من الانتاج الصناعى . وكان التقسيم الاجتماعى للعمل لا يزال يجرى مجراه مما أدى الى نمو العلاقات التجارية والمالية وتطور التجارة . واذا كان السوق فى الفترة السابقة قاصرا على المساحات الفردية فانه قد تطور الآن على المستوى القومى .

ونجم عن تطور التجارة فى ظل هذه الظروف الجديدة اضعاف الانتاج الصغير وساعد على ظهور عناصر معينة للعلاقات الراسمالية .

وأدى المستوى المرتفع نسبيا للانتاج السلعى الى تراكم مبالغ طائلة من المال فى أيدى الأفراد — التجار والمرابين الخ .. وكان هذا شرطا تاريخيا هاما لنشأة راس المال . ووجدت أيضا جماهير من الناس الأحرار الذين طردوا من الارض وحرموا من وسائل الانتاج وبالتالى من وسائل المعيشة بواسطة المستغلين الاقطاعيين والبرجوازية الناشئة . تلك كانت هى المتطلبات لما سماه ماركس التراكم البدائى لراس المال — ويمكن أن

لاحظ المظهر التاريخى لهـــذه العملية على نحو افضل فى القرن السادس عشر والسابع عشر فى انجلترا حيث تطورت الراسمالية فى وقت مبكر عن اى بلد آخر .

ورغم ان انجلترا فى القرن الســـادس عشر لم تكن سوى بلد صغير يبلغ عدد سكانها من ثلاثة ملايين الى ثلاثة ملايين ونصف ، فان دفعة اقتصادية قوية بدأت بها قدر لها بعد ثلاثة قرون أن تجعل من انجلترا واحدة من اقوى الدول الصناعية . وهكذا حدد القرن السادس عشر بداية التطور الصـــناعى الراسمالى والزراعى فى انجلترا .

وكان الشكل التعاونى البسيط هو المرحلة الأولى من مراحـــل الانتاج الرأسمالىفىالصناعة ، وفى الظاهر كان اشبه بورشةصناع كبيرة ولكن العمال كانوا عمالا أحرار لم يعودوا يشتغلون لأنفسهم ولكن من اجل أحد الرأسماليين صاحب دكان او تاجر جمـــلة أو مرابى أو أحد الصناع الأثرياء الذى يقوم بصناعة احدى المنتجات المحـــددة .

ولم يكن هنـــاك تقسيم للعمل . ولكن أدى هـــذا التعاون الى اقتصاد محدد فى العمل وانتاجية اكبر بالمقارنة بورشـة الصانع وكان صاحب العمل يستحوذ على الزيادة فى ناتج عملهم .

وشاهد القرن السادس عشر تغـــيرات بسيطة فى الصناعات الانجليزية ، وبالذات فى انتاج الأقمشة فصناعة الأقمشة التى كانت قاصرة على نقابات الحرفيين فى المدن ، انتشرت الى القرى . وكان الحرفيون فى الريف يعملون فى الزراعة وحرفتى الغزل والنسيج . والدور الرئيسى الذى لعبه المرآبون والتجار وصغار اصحاب الأعمال

كان عبارة عن شراء الأدوات التى ينتجها حرفيو القرية مستفيدين من نقص ما لديهم من مواد وبعدهم عن السوق .

وكان الوسيط يحدد أسعار الأدوات بطريقة تعسفية ، فهو يمد الحرفى بالمواد الخام والأدوات بالأجل وفى النهاية أصبح موزعا . والحقيقة أنه أصبح الآن صاحب عمل رأسمالى يقوم بدفع اجور لمن كانوا فيما مضى حرفيون مستقلون وبمقارنة هذا الوضع بالتعاونية الرأسمالية البسيطة فقد كان هذا نموذجا جديدا للمشروع الرأسمالى الذى يقوم على أساس تقسيم العمل اليدوى .. وعرفت هذه المشروعات بالمانيفاكتور وقد أقيمت بواسطة رأس المال التجارى أساسا لأن الحرفيين كانوا يعملون بالمنزل وليس فى ورشة عامة . وفى أنموذج آخر للمانيفاكتور كان رب العمل يشترى بنفسه جميع المعدات ، والمواد الخام اللازمة ، ويبنى ورشة كبيرة حيث يتركز فيها جميع العمال الأحرار وكان ذلك هو المانيفاكتور المتمركز .

والأنموذج الثانى للمانيفاكتور يتيح امكانيات أوسع فى سبيل التطور لعلاقات رأسمالية جديدة .

وكان لجميع هذه التغيرات التى حدثت فى الصناعة اثرا بعيدا على جميع فئات المجتمع الانجليزى .

فقد تطلب ازدياد لانتاج الرأسمالى فى صناعة النسيج مزيدا من الصوف والعمل عما كان يتطلبه الانتاج الحرفى . وأصبحت تربية الأغنام تجارة مربحة وتطلب هذا مساحات كبيرة للرعى ، وكان أصحاب الملكيات الصغيرة من الفلاحين لا زالوا يملكون معظم المراعى . وفى القرن السادس عشر بدأ اللوردات الانجليز الذين كانوا يقومون بتربية الأغنام منذ أجيال فى طرد الفلاحين من أرضهم

ويستولون عليها . وحرمت جماهير غفيرة من الفلاحين من ارضها واصبحت جميع المساحات خالية من السكان . وفى كتابه « ايتوبيا » ميز الكاتب الانجليزى الانسانى توماس مور انجلترا المعاصرة بهذه الكلمات « ان اغنامك .. اتت حتى على الرجال انفسهم » . وقد اضطر الفلاحون الذين طردوا من أرضهم وحرموا من جميع ملكياتهم ووسائل معيشتهم للبحث عن عمل فى ورشة راسمالية . وقد سهلت الحكومة الاقطاعية هذه العملية بأن اصدرت سلسلة من القوانين الصارمة اصطلح على تسميتها بالقوانين الدموية لاضطهاد « الرعاع » .

ان تجريد الفلاحين من أرضهم كوسيلة من وسائل التراكم البدائى لرأس المال كان يمارس ايضا فى الأراضى الواطئة وفرنسا .

وكانت ديون الدولة أيضا مصدرا هاما للتراكم البدائى لرأس المال . فقد كانت الدولة فى حاجة مستمرة الى المال لصيانة الجيش والادارة وكانت الضرائب غير كافية لتغطية المصروفات . فالدولة الاقطاعية (فرنسا بالذات) غالبا ما اقترضت المال من المرابين والتجار بمعدل فائدة مرتفع .

وكانت نشاطات الدولة الاقطاعية مرتبطة بمصدر آخر من مصادر التراكم البدائى ـــ الحماية الجمركية . ففى فرنسا ثم بعد ذلك فى انجلترا والأراضى الواطئة فرضت ضرائب باهظة على الأدوات المصنوعة المستوردة وعلى تصدير المواد الخام والمواد الغذائية ومنح التجار واصحاب الأعمال (فى داخل البلاد) اعانات مالية ومكافآت وبعض الامتيازات الأخرى .

الاكتشافات الجغرافية الكبرى وبداية التوسع الاستعمارى :

وبالاضافة الى تجريد الفلاحين من ارضهم قسرا فان مصـــادر تراكم رأس المـــال أقبل مع اكتشاف الأراضى الجديدة التى تحولت الى مستعمرات ونهبت ثرواتها . فتطور العلاقات التجارية والنقدية زاد من التطلع النهم للطبقة الاقطاعية الأوروبية نحو المـــال .

ودفعت الشهوة نحو الأثرياء بالمغامرين الاقطاعيين الى البلدان الآسيوية البعيدة ورويت القصص عن الثروات الخرافية التى يمكن العثور عليها فى البلاد المجهولة والتى تقع فى مكان ما من نصف الكرة الغـــربى .

وكان أمراء الاقطاع الأسبانيون والبرتغاليون والتجـــار هم أول المستعمرين . فقـــد وصل البرتغاليون فى بحثهم عن الذهب الى شواطىء افريقيـــا . وبعد أن داروا حول ما يسمى براس الرجاء الصالح وصلوا فى النهاية الى الهند .

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر بدأ البرتغاليون فى عملية نهب الهند وسرقة ما فيها من توابل وذهب وعاج وغيرها من الأشياء الثمينة.

وفى ١٤٩٢ اكتشف كرستوفر كولومبس ، وهو من أهالى جنوا ، وكان يعمل فى خـــدمة ملك أسبانيا ، أمريكا . وقـــد أعلنت جميع الأراضى التى اكتشفها كولومبس ملكا للتـــاج الأســـبانى . ولكن لم يكن لدى كولومبس اى فكرة بأن الأراضى التى اكتشفها حديثـــا كانت جزءا من قارة جديدة . وارتاد أمريجو فزبيوزى من فلورنسا المناطق الشمالية لأمريكا الجنوبية ووصفها ، واعلن عن وجود قارة جديدة أطلق عليها فيما بعـــد اسم أمريكا تكريما له .

وفى وأوائل القرن السـادس عشر اكتشف ماجلان ، وهو نبيل برتغالى كان يعمل فى خدمة التاج الأسبانى ، المعبر الجنوبى الغربى من اوروبا الى الشرق الأقصى ، وأكد بذلك الصلة بين المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى وكانت رحلته هـذه هى أول رحلة حول العالم .

فالاكتشافات الجغرافية الكبرى التى تمت فى القرن السادس عشر أدت الى تغيرات اجتماعيـة اقتصـادية خطيرة فى أوروبا : توسيع السوق العـالمية وزيادة كمية البضائع المتـداولة والصراع بين البلدان الاوروبية على ثروة القارات الأخـرى وبداية الاستغلال الاستعمارى .

وساهم تطور هذه العوامل بشكل كبير فى تحطيم اسلوب الانتاج الاقطاعى . فالثروة التى نهبت من المستعمرات بدأت تتـدفق على أوروبا وكان لهـا تأثير مفاجىء على اقتصاد أوروبا الغربية وبالذات اسبانيا والبرتغال حيث حدث ما يسمى « ثورة الأثمان » . فالفضة والذهب التى حصلوا عليها من عمل العبيد فى أمريكا كانت أرخص كثيرا من المعـادن النفيسة المتداولة فى أوروبا كوسيـلة للتبادل . ونجم عن هـذا ارتفاع فى سعر جميع المنتجات الأساسـية بشكل مستمر وتوجيـه ضربة عنيفة أولا الى فقراء الفلاحين الذين لم تكن لهم صلة بالسوق والى الشعب العامل فى المدن .

ودمر الغزاة الأسبانيون حضارة شعوب أزتيك فى المكسيك وانكاس فى بيرو اللتان كانتا على درجة عاليـة من التطور . وقد ساعدهم تفوقهم العسكرى الى جانب تأييد القساوسة الكاثوليك على غزو معظم أمريكا الوسطى والجنوبية . وبعد ذلك اقام المستعمرون نظاما صارما وحشيا للقهر والاستغلال بالاضافة الى نهب المستعمرات .

وفى أعقاب اسبانيا والبرتغال جاءت فرنسا التى اغتصبت عددا من الاقاليم فى امريكا الشمالية والجنوبية .

وقد أسس التجار الهولنديون والانجليز عدة شركات تجارية باسم الهند الشرقية لكى تستغل الشعب الهولندى بشكل اكثر عنفـــا . وفى القرن السابع عشر حل الاستعماريون الانجليز محل شركائهم الهولنديين فى الهند . ولكن فى أندونيســـيا كانت قدم الهولنديين اكثر رسوخا وحموا هذه البلاد من منافسيهم .

وفى البداية مارس الاستعماريون تجارة غير متكافئة ولكن سرعان ما بداوا يستخدمون الأسلحة النارية بشكل متزايد وتحولت كل من الهند واندونيسيا الى مستعمرتين للراسماليين الأوروبيين .

واصبح اغتصاب ونهب الأراضى الجديدة مصدر الثروة الخياليـــة للعـــالم القديم وزاد من سرعة تطور الراسمالية فى اوروبا .

استعمار القـــارة الأفريقية :

يرجع استعمار افريقيـــا الى القرن الخـــامس عشر حين نزل البرتغاليون ثم الأسبان الى هذه القارة واقام الأولون على الساحل الأطلنطى لمراكش والأخيرون بالمناطق الساحلية لتونس والجزائر . وفى بداية القرن الســـادس عشر حلت الامبراطورية العثمانية محل الأسبان وتوطد الحكم التركى على أفريقيـــا الشمالية بأسرهـــا .

وفى القرن الخامس عشر ايضا تحرك البرتغاليون نحو الجنوب متوغلين فى المناطق الاستوائية من القارة وحاولوا اقامة قواعد على طول ساحل غينيا الخ .

وبعد البرتغاليون استوطن الساحل الأفريقى الهولنديون والفرنسيون والانجليز وغيرهم من الاستعماريين الأوربيين الذين استغلوا السكان المحليين وحولوا التجارة الى وسيلة من وسائل السرقة المكشوفة . وادت المذابح التى ارتكبوها ضد سكان امريكا الاصليين فى القرن السادس عشر وازدياد المزارع الكبيرة فى ذلك الجزء من العالم الى تزايد الطلب على اعمال السخرة . ووجد المستعمرون اعمال السخرة هذه فى افريقيا . فاخذ مئات والوف من الشعب كأسرى وكبلوا بالحديد ونقلهم تجار الرقيق الى أمريكا الشمالية والجنوبية والوسطى . وتبين التقديرات التى قام بها وليم دى بوا انه فى القرن السادس عشر تم ترحيل ٩٠٠٫٠٠٠ من العبيد الأفريقيين الى امريكا و ٢٫٧٥٠٫٠٠٠ فى القرن السابع عشر و ٧ مليون فى القرن الثامن عشر و ٤ مليون فى القرن التاسع عشر وجميعا تبلغ حوالى ١٥ مليونا بينما تقدر احصائيات اخرى العدد بعشرين مليونا .

وقد ذبح عدد كبير من الأفريقيين وهم يقاومون عملية أسرهم . ومات عدد اكبر من العناء والتعذيب اثناء الترحيل . وطبقا لما ذكره دي بوا فان كل عبد افريقى كان يجلب الى أمريكا فان خمسة آخرون قتلوا فى افريقيا او ماتوا وهم فى طريقهم الى العالم الجديد . واثبت ان عمليات تجارة العبيد هذه قد حرمت أفريقيا من ٦٠ مليون نسمة وذكر مؤرخون آخرون ارقاما أكبر .

وبلغت تجارة العبيد ذروتها حوالى القرن الثامن عشر .

وبمرور الزمن بدات القارة الأفريقية والمستعمرات فى أجزاء اخرى من العالم تكتسب اهمية جديدة . وبدات الدول الراسمالية تتطلع الى المستعمرات كأسواق لبضائعها ومصدرا للعمل الرخيص والمواد الخام اللازمة لصناعاتها .

وفى عصر الامبرياليــة تحولت المستعمرات الى توابع للبـلدان الرأسمالية الكبرى تمدها بالمنتجات الزراعية والمواد الخام واعتبرت ذات أهمية كقواعد عسكرية استراتيجية .

ومع الصراع فى سبيل المستعمرات تم تقسيم العالم الى مناطق فى نهاية القرن العشرين . ووقعت افريقيــا كلها ، التى استعمرت فى وقت متــأخر عن آســيا وامريكا ، فى قبضة الدول الامبريالية التى أدت سياستها للقهر والاستغلال بالضرورة الى صراع حاد من جانب الشعوب المقهورة فى سبيل تحررهـــا .

تكوين الأمم :

لقــد كان لتكوين العـــلاقات الراسمالية اثرا كبيرا على التركيب الاجتماعى والسياسى لاوروبا . فتكوين الجماعات الوطنية باعتباره التشكيل التاريخى الذى تلى العائلة والقبيلة ـــ هو عملية بدأت فى مرحلة تفكك نظام المشاعيه البدائية . وفى البلدان التى تطورت فيها علاقات ملكية العبيد ظهرت جماعات وطنية موازية لتكوين النظـــام العبودى . وفى البـــلدان التى مرت بالنظام العبودى ظهرت هـــذه الجماعات مع تطور العلاقات الاقطاعية . وفى الوقت الذى استقرت فيه الاقطاعية ، اتخذت الجماعات الوطنية شكلا نهائيا فى كثير من البلدان الأسيوية والأفريقية .

وظهرت المتطلبات من أجل تكوين أمم حديثة فقط فى مرحلة ظهور الرأسمالية ، وكان اساس هـــذه العملية التاريخية هو الوحـــدة الاقتصادية والمركزية السياسية للدولة . فتقوية الروابط الاقتصادية بين مختلف اجزاء البلاد ادى الى ظهور لغة مشتركة وثقافة وطنية .

ولما كانت الأمم قد تكونت على أساس علاقات الانتاج الراسماليا وكانت الروابط الوطنية المتطورة برجوازية فى طابعهـــا فقد شملت الأمة جميع طبقات وفئات السكان . ولكن حين احتلت البرجوازية السلطة الاقتصادية والسياسية فقد اكتسبت أيضا الأمة الناشئة طابعا بورجوازيا ونفس الشيء يمكن أن ينطبق على ايديولوجية الأمة الناشـــئة .

هـــذه العملية كانت مرتبطة بتدعيم البرجوازية التى بدات تأخـــذ شكلها الآن كطبقة مستغلة جديدة وواصلت تطورها جنبا الى جنب مع البروليتاريا وظلت علاقاتهما دائما عدائية .

الملكية المطلقة الاقطاعية :

ان تطور العلاقات الرأسمالية قد وضع على عاتق الارستقراطية الاقطاعية مهمة اعادة تشكيل النظام السياسى لكى تحتفظ بسيطرتها الطبقية وكانت النتيجة لهذا هو ظهور الملكية المطلقة الاقطاعية .

لقد كانت الارستقراطية الاقطاعية ترغب قبل كل شيء فى الاستفادة من ازدياد الانتاج ولكنهم لم يستطيعوا تبين الخطر الذى كان مختفيـــا فى العلاقات الرأسمالية المتطورة ومن ثم أيدوا البرجوازية الناشئة . وتطلبت العمليـــات الاقتصادية بعض الارتباط بين الارستقراطية الاقطاعية والبرجوازية وكان المركز المسيطر تحتله الأخيرة . ولم تكن الارستقراطية الاقطاعية قادرة بمفردها على أن تضع تحت أشرافها المشروعات الرأسمالية التى تقع قرب الولايات الاقطاعية وتديرها فهذه المهمة لم يكن من الممكن تحقيقها الا بواسطة دولة اقطاعيـــة ذات أجهزة ادارية كبـــيرة . وعن طـــريق فرض الضرائب على المشروعات الراسمالية حصلت الطبقة الحاكمة على دخل هائل من

التجارة والصناعة النامية وعدا ذلك فقد كانت هناك زيادة فى المصروفات للانفاق على الجيش والدولة وبالتالى فان جل اهتمام أمراء الاقطاع كان منصبا على زيادة ايراد الدولة والضرائب واتخذ الريع الاقطاعى مظهرا مركزا وشاملا .

وأدت المطالبة الاقتصادية للطبقة الاقطاعية الى المزيد من تمركز البيروقراطية . وارتبطت هذه الحقيقة أيضا بتناقضات طبقية حادة لأن تزايد النفوذ الاقتصادى للبرجوازية كان مصحوبا بتزايد استغلال الفلاحين وفقراء سكان المدن . ولذا فقد كان الهدف الأساسى للدولة المطلقة الاقطاعية هو قمع سخط الجماهير . ففى انجلترا سحقت ثوار الفلاحين الذين كانوا قد طردوا من أرضهم . وفى روسيا لم ينجح سوى الاشراف فى قمع الثورة العنيفة التى قادها ايميليان بوجاشوف فى القرن الثامن عشر .

ثقافة وأيديولوجية عصر النهضة :

ان تطور العلاقات الرأسمالية فى المدن الايطالية فى القرنين الرابع عشر قد ساعد على نشوء ظواهر ايديولوجية جديدة خلقت ثقافة برجوازية جديدة عرفت بعصر النهضة .

فالأيديولوجيون البرجوازيون الأوائل كانوا مقتنعون بانهم يعملون على « احياء » الثقافة القديمة .

واثار ظهور الانتاج الرأسمالى اهتماما كبيرا بدراسة الظواهر الطبيعية وأدى هذا الى التطور السريع للتكنولوجيا والعلوم الطبيعية فى أواخر القرن الخامس عشر .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر حدثت تغيرات جذرية فى تطور العلوم الطبيعية وتوبلت العقائد الدينيـــة الجامدة فى أوربا بمعارضة من جانب البحث التجريبى ، وكان أهم تقـــدم ضخم تحقق فى هذه الأيام هو اكتشاف القوانين الطبيعية. فقد سارت الاكتشافات العلمية جنبا الى جنب مع صراع مستمر ضـــد المظهر الكاثوليكى الاقطاعى القديم ونشأت فلسفة جديدة تطرقت الى كافة مجالات حياة الانسان الروحية ــ العلوم والآداب والفنون . وكان هـــذا اعظم غليان تقدمى عرفه العالم .

وأنجب عصر النهضة كثير من عظماء الرجال نستطيع أن نذكر من بينهم ليوناردو دى فينشى (١٤٥٢ ــ ١٥١٩) الرسام العظيم والرياضى والمهندس ميخائيل انجلوا بوناروتى (١٤٧٥ ــ ١٥٦٤) الرسام والنحات ، والرسامين رفائيل (١٤٨٣ ــ ١٥٢٠) وتتيان (١٤٧٧ ــ ١٥٧٦) والشاعر بودوفيجو أريوستو (١٤٧٤ ــ ١٥٣٣) وغيرهم ممن احتلوا مكانة هامة فى عالم الثقافة .

وأصبح جوهر الاتجاهات الايديولوجية الجديدة فى عصر النهضة يعرف«بالنزعة الانسانية» وكان المدافعون عن هذه الآراء يركزون على الطابع الدنيوى للثقافة الجديدة وتحـــررها من الاستبداد الروحى للاقطاع والكنيسة . كمـــا يعلق الانسانيون أهمية خاصة على قيمة الفرد الانسانية .

ولكن لمـــا كان الانسانيون هم المدافعون عن النظام الراسمالى الناشىء فانهم اتجهوا الى تخليد التطرف فى نزعة الفرد الى التحرر [من ر]غبة الجماعة والرغبة فى تحقيق النجاح الشخصى بأية وســـائل [م]مكنة وبعبارة أخرى فان مثلهم كان هو النجاح البرجوازى . وهذا [م]ما يجعل « الانسانية » البرجوازية تختلف عن الانسانية الحقيقية العالمية كما تفادى بهـــا الطبقة العاملة .

عصر الاصــلاح :

ان البورجوازية بوصفها طبقة مستقلة لا يمكنها وهى تعــارض الديانة الكاثوليكية كأساس ايديولوجى للمجتمع الاقطاعى أن تتخلى عن المفاهيم الدينية جميعها ولهذا فهى لا تؤيد الغاء الكنيسة والدين الغاءا تاما بلاصلاحهما واحلال البروستانتية محل الكاثوليكية لكونهما تناسب بشكل أفضل مصالح وأفكار البرجوازية الناشئة .

والعقائد والطقوس التى قررتهـــا الكنيسة الكاثوليكية على مر القرون كانت تقوم على اساس خداع جماهير المؤمنين وجهلهم وتعتمد على التباهى بالتقوى سطحيا ، الأمر الذى كان يتفق اتفاقا كاملا وأهــداف الطبقة الاقطاعية الحاكمة لتبقى على الجمــاهير فى حالة من الخضوع .

ان تطور الانتاج السلعى وظهور العلاقات الراسمالية بعد ذلك كانا مصحوبين بتحرر الفلاحين من العبودية بنمو سكان المــدن ورفع مستواها الثقافى . هذه الظروف التاريخية أجبرت البورجوازية النامية على التفكير فى عقــائد اكثر تعقيدا والتدبر فى أساليب اكثر ملاءمة لتسميم أذهان الجماهير من تلك التى كانت تستخدمهـــا الكنيســـة الكاثوليكية بشر الاصلاحيون بالتعاليم الجديدة التى نقلت التقوى الكاثوليكية بشر الاصلاحيون بالتعاليم الجديدة التى نقلت التقوى الى العالم الداخلى للفرد . وتبسطت الطقوس الى الحــد المقبول وقدمت الطلبات من اجل ازالة الأثاث والملحقات الثمينــة وتأسيس ما يسمى بالكنيسة « الرخيصة » .

والمبدأ الرئيسى للبروتستينية كان مطابقة دقيقة نصــا وروحــا للكتاب المقدس الذى اعتبره البروتستانت المصدر الوحيد للاعتراف بالحق ، ونقض مبدأ تنزه البابا عن الخطــأ فى مسائل الايمان .

وكانت المـــانيا موطن حركة الاصـــلاح . وكانت الأخـــيرة وحرب الفلاحين الكبرى التى حدثت ١٥٢٤ ــ ٢٥ أول المعارك الرئيسية بين البرجوازية والنظـــام الاقطاعى وعبرت عن نشوب أول ثورة برجوازية فى أوروبا .

والبروتستينية فى شكلها الكلاسيكى تجسدت فى تعاليم جان كلفن وهو مبشر من سويسرا وقد قال بأن مصير البشر قد سبق أن تقرر قبل أن يخلق الله العالم بزمن طويل (عقيـــدة الاختيار الســـابق المقـــدسة) ومن ثم فالمرء يستطيع أن يثبت أنه من الذين اختارهم الله فقط بواسطة النجاح الذى يحققه فى مشروعاته المهنية . ويبشر كلفن بأن الهـــدف الأساسى للتـــاجر ورب العمل ينبغى أن يكون زيادة ثروتهم التى استؤمنوا عليهـــا من قبل الله .. وبناءا على ذلك فاستغلال العمـــال الاجراء كان يعتـــبر فى رأى كلفن والتعـــاليم البروتستانتية التى جاءت بعد ذلك قضية عادلة .

وانتشرت البروتستانتية فى البـــلدان الأوروبية التى كان الانتاج الراسمالى فيها يزداد بسرعة .

الثورة البرجوازية فى الأراضى الواطئة فى القرن السادس عشر :

لم تستطع التناقضـــات المتزايدة بين القوى الانتاجية الناميـــة وعلاقات الانتاج المتفسخة للنظام الاقطاعى أن تؤدى الى اقامة علاقات رأسمالية جديدة نهائية دون تحطيم الهيئات السياسية وأولا وقبل كل شىء نظام الدولة الاقطاعية . ولكن هذه التغيرات لم يكن من الممكن تحقيقها عن طريق الثورة قانونا موضوعيا للتقدم الاجتماعى .

ويعد عصر الاصلاح وثورة الفلاحين فى المـــانيا وهى أول محاولة نحو ثورة برجوازية قد انتهت بالفشل ، وكانت المحاولة الثانية وهى

التى قامت فى الأراضى المنخفضة (١٥٦٦ — ١٦٠٩) التى اتخذت شكل حرب تحررية وطنية ضد الحكم الأسبانى .

ورغم الطبيعـــة التقـــدمية للثورة فى الأراضى المنخفضة ولجميع القـــرارات التى أعقبتها فانهـــا لم تلغ الاستقلال ولكنهـــا أحلت الاستغلال الراسمالى محل الاستغلال الاقطاعى .

وكانت هذه هى اول ثورة برجوازية ناجحة ، ولكن الفضـــل فى نجاحها يرجع الى الجمـــاهير الشعبية غير أن اثرهـــا على زيادة تطور العلاقات الرأسمالية فى اوروبا كان ذو طابع محدود . والثورة البرجوازية فى انجلترا فى منتصف القرن الســـادس عشر والثورة الفرنســـية فى نهاية القرن الثامن عشر ، بالذات ، هما اللذان افتتحا العصر البرجوازى بكل معانى الكلمة .

خاتمـــة

وكما رأينـــا ، فان المجتمع الانسانى يتطور كنتيجة لحلول كيان اقتصادى ـ اجتماعى أكثر تقـــدما محل آخر . وينطوى تحت كل كيـــان ، نموذج تاريخى محـــدد للمجتمع بعـــلاقاته الاقتصـــادية والاجتماعية ، وبمســـتوى تطور قواه الانتاجيـــة ، وبمؤسساته السياسية والأيديولوجية .

وبانهيـــار المجتمعات البدائية ، ظهر الانقسام الى طبقات فى لجتمع ، مجموعات اجتماعية كبيرة ، احداها تمتلك وسائل وأدوات لانتـــاج والأخرى لا تمتلك شيئا .

ومن ثم ، فقد مكنت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لاحـــدى اثين المجموعتين من استغـــلال الجماعة الأخـــرى ، التى كانت حرومة من ملكية هذه الوسائل ، ومكنتها أيضا من أن يستحوذوا فسهم على نتـــاج عمل الآخـــرين . وهـــكذا ظهرت الطبقتان ساسيتان فى مجتمع الملكية العبودية ، العبيد وملاك العبيد .

وأدى تطور القوى الانتاجية ، الذى يشـــكل القوة الدافعة لكل ـدم انسانى ، الى الالغاء الثورى للكيان القـــائم على الملكية بودية ، وأن يحل محله النظام الاقطاعى . ومهما يكن ، فقـــد ن المجتمع الاقطاعى الجديد ، قائم هو الآخر على استغـــلال ـعب العـــامل ، استغلال الفلاحين والحرفيين بواسطة ملاك اضى الاقطاعيين .

ثم اقبلت الثورات البورجوازية التى قضت على الاقطـــاع ،

ولكنها واصلت عمليـــة استغلال الشعب العامل الذى كان قد لعب الدور الحاسم فى الغـــاء النظام الاقطاعى .

غير أن آفاق تحرير الجماهير العـــاملة اتخذت منحى مختلف . فلقــد فتحت الثورة البورجوازية امام الراسماليـــة . وتهيـــأت الظروف لاضطراد تطورها ، ولتغيرات اقتصادية تقدمية . ويكفى جوهر هـــذه التغيرات فى التحول من العمل اليدوى الى الانتـــاج الآلى ، من الطور الأول للراسمالية ـــ الصناعة اليدوية الى طور أعلى من الراسمالية الصناعية ـــ الصناعة الآلية .

وكان هذا هو ثورة صناعية حقة ، لا ترتبط فقط بنهوض القوى الانتاجية بل ايضا بالتغيرات الجذرية فى النظام الاجتماعى كله .

ولقـــد ذكرنا آنفـــا بأن ظهور الطبقة الرسمالية ـــ البورجوازية ادى الى ظهور نقيضها ـــ الطبقة العاملة ، البروليتاريا . وينعكس التناقض بين الطابع الاجتماعى للانتاج والطابع الفردى للملكية فى التناقض العدائى بين الطبقة العاملة والبورجوازية ، ذلك التناقض الذى أصبح التناقض الرئيسى فى المجتمع البورجوازى .

وازداد استغلال العمـــال ، فقد أصبحوا جزءا من الآلات ذاتهـــا وانحدرت أجورهم ، واتسع استخدام النساء والأطفال كمصـــدر من مصـــادر قوة العمل الرخيصة ، وحتى الأطفال أجبروا على العمل ١٤ ـــ ١٨ ساعة يوميا حتى يصيبهم الانهاك التـــام .

وجلبت الثورة الصناعية وتطور الراســمالية الصـــناعية التى صاحبهـــا تغيرات جذرية فى علاقات القوى الطبقية فى تلك البلدان التى حلت بهـــا الثورة . وأدى التقدم الصـــناعى الى تطور متزايد

للبروليتاريا التى كانت قد ابتدأت فى ممارسة تأثير متزايد على مجرى الحوادث السياسية . ومع ذلك ، فالبروليتاريا لم تلعب دورا مستقلا خلال المرحلة الأولى من التطور الراسمالى ، فقد كانت طبقة لم تكن قد وعت بعد مصالحها الطبقية الخاصة ، « طبقة فى ذاتها » ، وان أصبحت أخيرا « طبقة لذاتها » على استعداد لخوض المعارك من أجل مصالحها ضد البورجوازية .

وبالتدريج اتخذت حركة الطبقة العاملة ضد الاستقلال الراسمالى طابعا حادا متزايدا .

فالبورجوازية التى كانت منذ زمن بعيد ، قد تشكلت فى طبقة واعية بمصالحها الطبقية ، قد أصبحت الآن مواجهة بالبروليتاريا الصناعية التى كانت على أهبة الاستعداد لشن نضال نشط لتحسين ظروف حياتها الطبقية وظهر الاشتراكيون الطوبويون الحالمون بنظام اجتماعى أفضل ودفعوا الى السطح بالأفكار الاشتراكية .

غير أن حركة الطبقة العاملة من ناحية والاشتراكية من الناحية الأخرى ، لم يكونا على اتصال فيما بينهما . فلقد كانت حركة الطبقة العاملة تلقائية وكذلك فان الاشتراكيين الخياليين ، لم تكن لديهم أية معرفة علمية عن تطور المجتمع الانسانى ، ومن ثم فلم يكن بمقدورهم أن يشربوا الحركة الثورية للبروليتاريا — بالوعى السياسى . ولقد انجز هذه المهمة التاريخية العظيمة الثوريان العظيمان وعباقرة الفكر العلمى كارل ماركس وفردريك انجلز .

وكانت نظرتهم الثورية الجديدة للعالم مبنية على أساس من الدراسة العميقة لتاريخ العالم ، وخبرة الصراع الطبقى بالتحديد ، وعلى تعميم لخبرة لحركة الطبقة العاملة والحركة الاشتراكية .

واستفادت الماركسية من كل ما هو قيم وثمين فى تطور الفكر والثقافة الانسانية وأصبحت الوريث الشرعى لكل منجزات الانسانية. والماركسية لم يقتصر دورها على مجرد مواصلة او تحسين التعاليم الفلسفية والاقتصادية والاشتراكية التى سبقتها ، بل أنها خلقت ثورة حقة فى كلا المجالين العلمى والاجتماعى .

وجمع ماركس وانجلز بين عملهما النظرى مع النضال العملى من أجل تأسيس حزب بروليتارى ثورى .

وتوج هذا العمل بتأسيس العصبة الشيوعية فى عام ١٨٤٧ والدولية الأولى فى عام ١٨٦٤ .

وكان لنشاط الأعضاء الفرنسيين فى الدولية الأولى ، تأثير كبير على تطور المبادرة الثورية للطبقة العاملة الفرنسية . وادى هذا الى وقوع الأحداث التاريخية فى مارس ١٨٧١ . ففى ١٨ مارس ١٨٧١ ، انتقلت سلطة الدولة الى ايدى الطبقة العاملة لأول مرة فى تاريخ الانسانية . وكان تأسيس كوميون باريس بالرغم أن عمره لم يمتد أكثر من ٧٢ يوما ، هو التجربة الأولى لدكتاتورية البروليتاريا واثرى التعاليم الثورية لماركس وانجلز .

وافتتح كوميون باريس مرحلة تاريخية جديدة . فبحلول السبعينيات كان النظام الرأسمالى قد ظهر على نطاق عالمى .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ابتدأت القوى الانتاجية فى التطور بسرعة هائلة . واحتل الانتاج الأهمية الأولى وبرزت الصناعة الآلية الى المقدمة . وادخلت الكهرباء ـ كمصدر رخيص للطاقة فى الصناعة والنقل .

غير أن القوى الانتاجيـة النامية دخلت بسرعة فى تناقض مع علاقات الانتاج الراسمالية ، التى كانت تعوق التقـدم الانسانى . وبلغ استغلال الطبقـة العاملة فى البـلدان الكبيرة وكذلك القهر الاستعمارى والقومى الى أقصى مداه . وانتج فقر جماهير الشعب تناقضا صارخـا مع ثراء وفخفخة الطبقـات الحاكمة . ودخلت الرأسمالية الى أعلى وختـام مراحل تطورها ــ مرحلة الامبريالية .

وأدى التطور الاقتصـادى غير المتوازى للبـلدان الرأسمالية فى مرحلة الامبريالية الى زيادة حـدة التناقضات فيمـا بينها . وكانت الحرب العالمية الأولى هى النتاج الطبيعى لهـذا التناقض الذى بلغ ذروته فى الأزمة العـامة للنظام الرأسمالى بأكمله .

وقوبلت السياسة الرجعية للامبرياليين بالنضـال الثورى من جانب الطبقة العـاملة . وأدت سيادة الماركسية فى حركة الطبقة العاملة العـالمية الى زيادة حـدة الصراع الذى تشنه الجماهير العـاملة .

وانتقل مركز الحركة الثورية العالمية الى روسيا حيث كان اول حزب ماركس ثورى قد تشكل بقيادة فلاديمير اليتش لنين الخليفـة العبقرى لمـاركس وانجلز . وقاد حزب لينين ثورة اكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية التى أقامت دكتاتورية البروليتاريا وأحلت الطبقة العاملة فى السلطة .

وفتحت الثورة ثغرة فى جبهة الامبريالية العالمية وافتتحت عصرا جديدا فى تاريخ الانسانية ــ عصر حلول الاشتراكية محل الرأسمالية عصر الغـاء النظام الاستعمارى المشـين ، العصر الذى سيضع نهاية لكل الحروب الدموية الغير انسانية التى تولدها الامبريالية .

انتهى

فهرست

الشركة المصرية للطبـــاعة

(حسن مدكور وأولاده)

٣٠ شارع عبد الخالق ثروت بالقـــاهرة

تليفون ٥١٥٧١ ـ ٩٠٦٥٧١

في هـذا الكتاب :

دراسة جادة بمفهوم الاشتراكية العلميـة لكل من :

١ ــ المجتمع البـدائى ، تكوينـه ، عصره الذهبى وتحلله .

٢ ــ مجتمع ملاك العبيد فى آسـيا وافريقيا والنظام العبودى الأغريقى والرومانى.

٣ ــ المجتمع الاقطاعى ، ظهوره ، وتطوره وتفككه ايذانا بنشأة الرأسمالية .





الثمن ١٠

دار يوليو للنشر
٣٢ شارع صبرى أبو علم ت : ٤٢٧١٨
القاهرة - ج.ع.م

مطابع مدكور وأولاده بالقاهرة ت : ٥١٥٧١